دور مصر..

حديث هادئ مع التاريخ

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : دور مصر..
حديث هادئ مع التاريخ
المؤلف : فتحي خطاب
رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١١م

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة: ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

دور مصر..
حديث هادئ مع التاريخ

فتحى خطاب

مكتبة جزيرة الورد

إهــداء

إلى مصر..

المسكونة بروح التاريخ ،

وعبقرية المكان

فتحي

تصدير الطبعة الثانية

البيان رقم واحد، مساء "جمعة الحسم" الحادى عشر من فبراير ٢٠١١.. جاء على لسان أكثر من عشرة ملايين مواطن.. ويقول: ما يريده الشعب لابد أن يكون.. وما كان لابد أن يرحل، وأن نتطهر منه.. وما سوف يكون فهو محكوم بضمير جيل العصر والأجيال القادمة، ويفتح كل الأبواب والنوافذ للمستقبل الذى تستحقه مصر، بعد سنوات عجاف تراجعت فيها طويلا وكثيرا إلى الهامش، تراقب مستقبلها فى حسرة، وتنعى حاضرها بأسى، وبعد أن غابت مضطرة عن دورها ومكانها، وتراجعت - غير راضية - عن قدرها وقدراتها!! وبعد أن دفعوها دفعا للخصومة مع تاريخها ومع مسئولياتها القومية، وأرادوا لها أن تصطف منكسرة - وهى الشامخة دائما - إلى جوار أنصاف الدول الحديثة النشأة، وأن يرتبط قرارها برؤيتهم، تاركة مقعد الشقيقة الكبرى شاغرا، بدواعى حكمة نظام تم خلعه بإرادة شعب صبر طويلا جدا على كل ممارسات القمع، وتوحش الفساد والمفسدين، وسطوة الفقر والبطالة، وتربح القراصنة من لصوص السلطة وأتباعهم، على حساب ثروات ومقدرات الوطن!

البيان رقم (١) من شعب مصر العظيم، كتبه شباب هم من أنبل وأجمل ما أنجبته البلد.. بيان يجسد حلم خلاص مصر من نظام، وبكامل هيئات ومؤسسات ودكاكين الفساد، التى طغت بجبروت السلطة والسطوة على شعب مصر، تعاقبه بكل صنوف الذل والظلم والاستعلاء،

وكأنه شعب قد خلق لخدمة المماليك الجدد الذين طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد!! الخلاص من نظام كامل توطن وباء ثقافته على أرض مصر نحو ثلاثين عاما، ولوث ضمير الأمة، وتصدعت معه قيم اجتماعية مصرية، وتفكك نسيج الوحدة الوطنية رغم تلاحمه على مدى أكثر من ألف وخمسمائة عام!!

وهناك حقيقة كبرى لا يمكن تجاوزها، وهى أن القيمة العظمى للحظة التاريخية الفارقة فى تاريخ مصر الحديث، كانت حاضرة فى موقف جيش الشعب من ثورة الشعب، ومنذ أن تحركت الملايين وفى طليعتها الشباب، تريد إسقاط النظام، وأن تتحرر من عبء ثلاثة عقود أصابت أعصاب الأمة وطاقاتها ومواردها بالترهل، حتى أصبحت غير قادرة على أن تصلب عودها!!

والشاهد. . أنه فى لحظة من تاريخ مصر، كانت مشحونة بالخطر، ومعبأة بالقلق، أثبت الجيش المصرى ـ الرمز والعقيدة ـ أن الولاء والانتماء أولا للشرعية الشعبية. . وإذا كانت القوات المسلحة قد دفعت إلى ميادين الخروج بحقائق الأشياء ذاتها، وطبائع الأحوال ذاتها ـ كما يرى البعض ـ إلا أن تواجدها فى ساحات الثورة وشوارعها، لم يكن فى صورة الحكم الفاصل بين الشعب والنظام الحاكم، ولكن كان تواجدا بدواعى حماية الشعب، وهو أصل الشرعية ومصدرها، وبوعى وإدراك لقضية وطن بأسره فى هذا المنعطف التاريخى، وهكذا كان الجيش المصرى أول من اتصل وارتبط مباشرة بشرعية الملايين، وقد استشعر إرادة الشعب منذ اللحظة الأولى، وأن عليه أن يتحمل مسئوليته، وهو نفسه جيش الشعب وابنه، وكانت تلك هى الرسالة الأولى، ولها رمزية عميقة الدلالة لمعنى

الثورة الكاملة، للشعب المصرى بكامله، شعب وجيش..

والحقيقة الكبرى التى لا يمكن تجاوزها، أن الجيش المصرى تدخل لاستكمال مسيرة الشعب، وتتويجها.. وكانت حقائق الموقف وخطواته: أن آليات الجيش وضباطه وجنوده، داخل ساحات الثورة وشوارعها، تحمى جماهير أمسكت بالشرعية فى يدها، ونزعت عن الحكم القائم مقومات شرعيته، وفى نفس الوقت كانت القوات المسلحة، وباعتبارها موطن القدرة والقوة فى فكر الدولة وأساسها، وليست مجرد أداة تحت سلطة النظام، كانت تدير حوارا صعبا ـ لم تتكشف تفاصيله كاملة حتى الآن ـ من أجل أن يتخلى رأس النظام عن عناده ويخفف المأزق عن الجميع، وأن يتخلى عن المنصب استجابة للرفض الشعبى القاطع، وأن يمد المجلس الأعلى للقوات المسلحة جسرا تمشى عليه حركة سليمة ومأمونة لانتقال السلطة، ووضع الأساس لشرعية جديدة، لكى يتنفس الشعب بحرية..

وحين يتم التأريخ لثورة الخامس والعشرين من يناير، فإن شواهد وحقائق اللحظة التاريخية، تقول:

أولا: أن التاريخ الحى الذى جرت أحداثه فى بر مصر، قد سجل أول ثورة مصرية كاملة ـ ثورة الشعب والجيش معا ـ وإذا كانت طلائع من الجيش المصرى قد قامت بثورة فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ واحاطت بها وساندتها جماهير شعبه، فإن طلائع شباب مصر حين قرر أن يستعيد الوطن روحه الوثابة، وأن يجسد حلم خلاص مصر، ويفجر الثورة الشعبية، فإن جيش مصر قد أحاط بالثورة، واعترف بشرعية مطالبها، وساند جماهيرها.

ثانيا : لم يكن الجيش المصرى هو الأقرب إلى مفاتيح القوة فقط، ولكنه أيضا الأقرب إلى مفاتيح العصر، وكان موجودا ومنذ اللحظات الأولى صفا موازيا وليس معارضا للثورة الشعبية، وقد وضع العالم أمام صورة للحظة التاريخية، وهى أن الجيش الوطنى وهو يملك ميزان القوة، قد تحرك وتواجد بقيمته ومسئوليته، ويجسد على أرض الواقع حقيقة أن أى جيش وطنى ـ وبفكر الدساتير بأسرها، ومنذ ظهورها وكتابتها ـ هو جيش الشعب، حامى الشرعية الوطنية، وحامى الأمن القومى.. وكان تأكيدنا فى فصل "العسكرية المصرية" من هذا الكتاب، على أن العسكرية المصرية تتدخل دائما لتصحيح مسار التاريخ، وإذا كانت حقائق القوة لدور مصر، وتأثيره ، يصنعها البشر أولا، وقبل الموقع وأهميته، فإن العسكرية المصرية تأتى دائما تجسيدا لخصائص وهوية وفكر وقيم ومبادئ هذا الدور.

ثالثا: وبمقدار ما كانت القوات المسلحة هى جيش الشعب، يخدم ويحمى مصالح الوطن "أرض وشعب" ويدين بالولاء والانتماء للشرعية الشعبية أولا، وليس للنظام الحاكم، فإن هذا النظام قد حول ـ فى المقابل ـ أجهزة الشرطة، إلى قوة غاشمة، ولائها وانتمائها للنظام الحاكم، وتتعامل مع الشعب بقسوة مفرطة، وترسم صورة لواقع الأنظمة الاستبدادية، التى تعاقب شعوبها باليد الغليظة والقهر والرعب!!

رابعا: وكان واضحا أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة لديه القدرة على الإصغاء للشعب، ومتابعة باقى مطالب الثورة، والحفاظ على مكاسبها، وبضمان من الثقة والوعى بأهمية عنصر الوقت، ومن الأمن والاقتصاد، إلى السياسة والقرار، إلى الأمن القومى، ولديه القدرة أيضا

على التعامـل مع عناصر وبقايا نظام، تحاول جاهـدة وبمخزون من ضيق الأفق، ومخزون المراوغة بالحيلة والخـبث، أن تلعب قرب الغروب وعلى حافته، لعبة الثورة المضادة وبما يناسب أحلامها أو أوهامها، وهى عناصر أضعف من أن تقاوم..

وما سبـق يمكن إجمالـه فى ملاحظتيـن: الأولى على لسان الخـبير والمستـشار الدولى الأمريكـى "جيرمى بانرمـان" بأن جيش مصـر يمثل المجتمع المصرى، وهو قريب من الشعب ويشعر به، وأن الهدف الأول له الآن يتمثـل فى وضع البلاد على الطريـق الصحيح.. والملاحظة الـثانية على لسان الكولونيل "جوزيف إنجلهـارد" بأن الشعب المصرى يثق كثيرا فى مؤسسته العسكرية، ويرتاح لما تتمتع به من وطنية شديدة..

وهكذا.. كان لابد من الشعب والجيش من لقاء.. وقد حدث.

....

....

والحقـيقة الكبـرى فى تاريخ مصـر الحديث، أن الشعب هـو صانع الأحداث، حين قرر أن يقول كلمته ويمتلك مصيره، ويفتح أفق المستقبل أمامه، وفى لحظة تاريخية سوف تظل شاهدا على كتابة شهادة ميلاد مصر من جديد، مع عودة الـروح إلى الوطنية المصرية الجامعـة، واستعادة أمل غاب طويلا وراء السحب الداكنة التى تكـاثرت فى سماء مصر، وبعد أن خرج الشعب المصرى كله بأجياله، وبطبقاته، وبطوائفه، يمسك بالشرعية فى يده، فى هذا المنعطف التاريخى، يجسد حلم خلاص مصر، ويفرض إملاءاته لترتيبات المستقبل.

وأصحاب هذه اللحظة التاريخية من شباب وجماهير شعب مصر، ومع الخروج الكامل ولأول مرة فى التاريخ الحديث، وقالوا كلمتهم بصوت هادر وقاطع. . كانت شرعية الملايين تفتح الطريق للتاريخ مع الجمهورية الثالثة، وليست الجمهورية الثانية كما يرى أو يتصور البعض، وهى رؤية لا تأخذ فى تقديرها الأبعاد الجديدة فى الفكر السياسى الحديث لشكل المتغيرات التى تعيد تشكيل حاضر المستقبل. .

والجمهورية الأولى فى التاريخ المصرى، بدأت مع ثورة يوليو ١٩٥٢ التى ارتكزت على مفهومين أساسيين هما: تخليص الوطن من قيود الاستعمار والاستغلال، ورد الاعتبار إلى الشخصية المصرية، ثم بدأ التغيير الشامل والعام سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وتحددت ملامح الجمهورية الأولى بعد سقوط الملكية، وانهيار الفوارق الطبقية والاجتماعية الرهيبة، والانحياز للفقراء، وتصاعد حركة ودور الطبقة الوسطى، وسيادة العدالة الاجتماعية، وأن تمارس مصر دورها الفاعل والنافذ فى محيطها العربى والإفريقى، ويمتد التأثير إلى دول العالم الثالث، ومع نهضة ثقافية وفنية ساهمت فى تشكيل وجدان المواطن العربى. . والجمهورية الأولى التى استندت إلى شرعية الثورة، كان لها منهجها ورؤيتها وفلسفتها الاقتصادية والاجتماعية، وثوابت ومواقف سياسية تحدد مسار العلاقات العربية والدولية.

والجمهورية الثانية استندت إلى شرعية حرب أكتوبر ١٩٧٣ وانحرفت ١٨٠ درجة عن مبادئ وثوابت ورؤية وفلسفة الجمهورية الأولى، وحدثت التحويلة الكبرى باتجاهات مغايرة تماما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ومن فكر اقتصادى اشتراكى، إلى فكر اقتصادى مختلط، لا

هو رأسمالـى ولا هو اشتراكى، وبدأ الانحيـاز واضحا لطبقـة الأغنياء، وتصدعت التركيبة الاجتماعية المصرية، وانهارت الطبقة الوسطى، وغابت العدالة الاجتماعية، وتراجع دور مـصر العربى والإقليمى، وحدث خلل كبـير فى الـفكر السـياسى المصـرى، ومن موقف عـدم الانحيـاز، إلى الانحـياز للغـرب، وجاءت الخيـارات السيـاسية تـفتح الأبواب لتـدخل الغرب، وأن تختل رؤيـة المصالح الحيوية.. وتحددت ملامـح الجمهورية الثانية بتغييرات شاملة للأوضـاع الاقتصادية، والمواقف السياسية، والحالة الاجتماعـية.. وشهدت الجمهـورية الثانية ولادة التجربـة الحزبية، وهى أحزاب لم تولد ولادة طـبيعية، بل جـاءت كلها بولادة قيصـرية، ولأنها ولدت فى أحضـان النظام فقد ظلت مـنهكة، ولم تواتها الفـرصة أو لم تواتهـا الشـجاعـة لإثبات وجـودها وفـاعليـتهـا.. وفى العـهد الثـانى للجمهورية الثـانية "مع حكم مبارك" كانت الصورة الحاكمـة للجمهورية الثانية، هى جمهورية الفساد!!

الجمهورية الثالثة وهى التى تـستند إلى شرعية ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ لا تزال فى مـرحلة الولادة الجـديدة، وإن كانت مـلامحهـا قد حددتـها مطالب الـشرعيـة الشعبـية، بالنـظام الرئاسى البـرلمانى، وتأسـيس نظام دستورى ديمـقراطى يحد من نفوذ السـلطة التنفيذية علـى كل السلطات ويضمن كل الحريات الديمقراطية والاجتماعية للمصريين!!

وإذا كان شعب مصر العظيم، قد قال كلمته حين فجر ثورته الشعبية فى الخـامس والعـشريـن من ينـاير ٢٠١١ وحدد مـا يريده.. وفـرض إملاءاته.. وأن ما هو صحـيح لابد أن يكون قائما، حتى تستـعيد مصر روحها الوثابة.. فقد كان "دور مصر" حاضرا، ويدير حركة التساؤلات

حول ضرورة استرداد مصر لمكانتها وريادتها ونفوذها فى المنطقة العربية والعالم، بعد التراجع البائس الذى كانت عليه مصر الدولة قبل ٢٥ يناير، حين انكمشت مصر داخل جلدها، وتضاءلت، وداهمتها التجاعيد، وتحولت من لاعب رئيسى إلى متفرج!! وفى نفس الوقت كان دور مصر - بعد الثورة - يشغل اهتمامات ومتابعات وتوقعات الآخرين خارج حدودنا، وباعتبار أن مصر هى قلب وروح العالم العربى، وأن ما يحدث فى مصر له عميق الأثر على باقى العالم العربى والعالم بأسره - حسب تعبير السيناتور الأمريكى "جون ماكين" الجمهورى المرموق - وأن التوقعات القائمة بأن مصر ما بعد ٢٥ يناير سوف تشهد تحولات سياسية كبرى فى الفكر والفعل، وليس صيغا وعبارات تتزى برداء التصريحات، وأن مصر الديمقراطية - كما يقول وزير الخارجية الفرنسى السابق هيربرت فيدرين - ستسعى لإعادة تأكيد نفوذها فى الشرق الأوسط، وبعد أن تم تحييدها لأكثر من ٣٠ عاما عن المنطقة، تاركة إياه مشلولا، فمصر التى تعد تاريخيا قلب الوطن العربى، بدأت حركتها لإعادة النفوذ المصرى على الساحة العربية، وأن هناك بداية فجر جديد للقومية العربية فى المنطقة، حتى وإن كان من غير المؤكد كيفية تطور الأحداث فى العالم العربى خلال المرحلة المقبلة..

وهناك من يرى أن من الأمور التى أصبحت مستقرة فى الأذهان أن مصر بعد ٢٥ يناير لن تكون هى مصر بعد هذا التاريخ، وينطبق هذا على أوضاعها الداخلية، ونظامها السياسى، مثلما ينطبق على علاقاتها الإقليمية والدولية، وقبل ٢٥ يناير كانت الانتقادات عديدة لأداء السياسة الخارجية المصرية تجاه إقليمها وقضاياه، وزاد الحديث عن تراجع دور

مصر الإقليمى، ومكانتها، مما أثر على النظام العربى ككل. إلى جانب بروز قوى تنافس مصر على التأثير والمكانة، ليس فقط من جانب قوى إقليمية مثل تركيا وإيران، بل أيضا من دول صغيرة حيث أعطتها موارد البترول ثقة فى النفس انعكست على لعب دور مؤثر إقليميا . . ولعل الغزو العراقى للكويت أوائل التسعينيات نقطة تحول لتغليب العامل القطرى والمصلحة القطرية على العامل القومى، والذى انعكس على النظام الإقليمى العربى ككل ومؤسساته المتمثلة فى الجامعة العربية . . وقد كان المدافعون عن أداء السياسة الخارجية فى عهد الرئيس "المخلوع" محمد حسنى مبارك، يجادلون بأن النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط قد تغير، ولم يعد هو النظام الإقليمى الذى ساد فى حقبتى الخمسينيات والستينيات، حيث كانت مصر لها صوت موجه ومسموع فى منطقتها، غير أن هناك قوى إقليمية برزت بعد ذلك وأثرت على دور مصر الإقليمى ! !

. . . .

وهكذا كانت دور مصر حاضرا مع الثورة الشعبية، من أجل استعادة مصر لدورها فى العالم العربى والشرق الأوسط؛ لأن السياسة الخارجية يجب أن تكون تعبيرا عن رأى الشعب ـ كما يقول عمرو موسى ـ والذى شبه مصر قبل ٢٥ يناير بمواطن يعيش باليومية، بعد أن تراجع دورها، وأصابه الجمود، وبدت مصر عجوزا ومتعبة، وكانت قيمة مصر ـ كما يرى موسى ـ متراجعة تماما، وأن مصر بعد ٢٥ يناير، استردت الكثير من بهائها واحترامها، وأن الثورة أعادت صياغة دور مصر إقليميا، وأكسبتها احتراما عالميا .

والشاهد . . أن من مكتسبات ثورة ٢٥ يناير، عودة الاهتمام بقيمة ودور مصر الإقليمى، وقوتها الناعمة فى الإقليم، بعد أن عانى دور مصر الإقليمى ومؤسستها الدبلوماسية انكماشا وتراجعا ملحوظا فى السنوات الأخيرة، لكنها تمكنت من استعادة قدر من عافيتها، وإحراز عدة نجاحات بعد الثورة، فقد نجحت مصر فى إنهاء حالة الانقسام بين حركتى فتح وحماس الفلسطينيتين بعد ٤ سنوات من عدم قدرتها على تحقيق المصالحة بين الجانبين فى عهد النظام السابق، وأجريت مراسم الاحتفال بتوقيع اتفاق المصالحة بين الحركتين وباقى الفصائل الفلسطينية فى القاهرة ٤/ ٥/ ٢٠١١ الذى وافق اليوم المائة لانطلاق الثورة، والدعوة لعقد مؤتمر دولى بإشراف الأمم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية، على أن يكون الهدف هو السلام وليس عملية السلام. . حيث انتهى الأمر فى السنوات الأخيرة إلى أن أصبح الهدف هو الحفاظ على استمرار عملية السلام ذرا للرماد، وإلهاء للعقول، واستنفادا للوقت. . واللافت للنظر أن يتم تصحيح المسار بهذه السرعة. . كما أعلنت أثيوبيا عن تأجيل التوقيع على الاتفاقية الإطارية الجديدة الخاصة بتوزيع مياه النيل، التى ترى مصر أنه قد تضر بحصتها، وبعد زيارة قام بها وفد دبلوماسى شعبى مصرى لأديس أبابا بهدف فتح صفحة جديدة فى العلاقات بين البلدين، والتى شهدت توترا ساخنا منذ إعلان أثيوبيا عن بناء "سد الألفية" على النيل بتكلفة تتجاوز أربعة مليارات دولار. . والبدء فى ترميم العلاقات الإفريقية خاصة مع دول حوض النيل، التى كاد بناؤها ينهار من الإهمال الطويل، ومن مشاعر الاستياء الإفريقى من الطريقة التى يتعامل بها المسئولون المصريون مع قادة إفريقيا، وهى الملاحظة التى شدّد عليها بأسى رئيس الوزراء الأثيوبى "ميليس زيناوى" وهو يؤكد تقديره لثورة ٢٥

يناير، وما قامت به من إنجازات، وفى مقدمتها استعادة مصر لدورها الريادى فى إفريقيا، وأنه لو تبين أن "سد الألفية" سيمنع مترا واحدا من المياه من الوصول لمصر فلن نبنيه.. وتتفق تماما كلمات رئيس الوزراء الأثيوبى مع كلمات رئيس أوغندا "يورى موسيفينى" عن الثورة واستعادة مصر لدورها.. كما قطعت الدبلوماسية المصرية خطوات إلى الأمام على صعيد العلاقات مع إيران ودول الخليج وإفريقيا، فقد أصبحت المصالح الوطنية، وليس مصالح النظام والتمهيد للتوريث، هى المحور الذى تقوم عليه السياسة الخارجية فى الوقت الراهن..

وأصبح واضحا أن هناك تطويرا نوعيا وملحوظا فى السياسة الخارجية لمصر، بعد أن كسرت الدبلوماسية المصرية عوائق كبيرة كانت موجودة فى عدد من القضايا، وأن هذا التطور وضع مصالح مصر ومكانتها فى المسار الصحيح، بعد أن فتحت ثورة ٢٥ يناير أفقا جديدة للسياسة الخارجية المصرية، تراها صحيفة "وول ستريت جورنال" الأمريكية، استقلالية أكبر فى السياسة الخارجية المصرية التى يمكن أن تحد الأهداف الأمريكية والإسرائيلية فى الشرق الأوسط، وأن استعادة مصر مكانتها كدولة رائدة وقائده فى المنطقة، سيغير موازين القوى فى الشرق الأوسط، ويمنح القاهرة مسافة من تل أبيب، وقد أحبطت السياسة المصرية "الجديدة" الاعتقاد الإسرائيلى الذى تجاوزه الزمن بأن مصير الدولة الفلسطينية فى يد إسرائيل.

....

....

قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ كان الحديث متواصلا داخل الساحة

العربية عن دور مصر، وقد بدأ على استحياء وربما أقرب إلى همس العتاب، منذ منتصف السبعينيات تقريبا، وبعد أقل من عامين من انتصار حرب أكتوبر المجيدة، وحين بدأت روح أكتوبر تتراجع خطوة خطوة، وأثيرت الهواجس حول الاستثمار السياسى للنصر العسكرى، وأحيطت الظلال بصورة التضامن العربى التى تصدرت المشاهد فوق ساحات القتال وخارجه، ثم تصدعت العلاقات العربية ـ العربية، مع زيارة الرئيس الراحل محمد أنور السادات للقدس، وتوقيع اتفاقية السلام المصرية ـ الإسرائيلية. . وشهدت الساحة العربية أحداثا ووقائع متلاحقة، من الأزمات والقضايا، وهبت عليها أعاصير، وضربتها صواعق البرق التى تولدت شحناتها النارية مع تناقض وتصادم المواقف العربية وهى فى حالة انكشاف كامل!! وكان البحث جاريا عن "دور مصر" بالتساؤلات الحائرة القلقة، على مستوى الشارع العربى!! ومع خريف حقبة الثمانينيات، وطوال عقد التسعينيات، كان الوضع العربى القائم، يجعل كل طرف عربى يهتم بنفسه، كل طرف يبحث عن خلاصه الخاص فى لحظة هروب فى التاريخ العربى، وبات واضحا أن من أكبر مشاكل العالم العربى، أن النظرة الجزئية تشغل كل تفكيره، وهناك غياب للرؤية الشاملة!! ومع بداية الألفية الثالثة كان الوضع العربى قد جرت إعادة تركيب له، وترهلت الأمة التى أصبح بعدها السياسى بمحتواه القومى مضروبا. . وأيضا كانت التساؤلات تحيط بدور مصر؟! وجاءت عملية السطو المسلح على دولة عربية "العراق" وتدهور الأوضاع داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة، وانفلات غرور القوات الإسرائيلية، لتضيف أبعادا أخرى حول التساؤلات وعلى مسار الحديث المتواصل عن غياب وتراجع دور مصر. .

ولم يكن غـياب أو تراجع أو ترهل الدور المصـرى متمثـلا فقط فى الجهد السـياسى والدبلوماسى فى إطار حـركة السياسة الخارجـية المصرية "ويقول أحـد أقطاب الدبلومـاسية القـانونية الدكـتور نبيل العـربى وزير الخارجية الـسابق وأمين عام جامـعة الدول العربية، عن تلـك الفترة من أواخر الثمانينيات وحتى بداية الـعقد الأول من القرن الحادى والعشرين: لاحظنا أن سياستنا أصبحـت رد فعل لما يحدث، ولا توجد لدينا رؤية لما نريد!!" والجهد السياسى والدبلوماسى أحد عناصر الدور الذى كان غائبا أو متراجعا أو مترهلا، فهناك عناصر أخرى أصابها الترهل فتراجعت عن موقعها، مثل دور مصر الريادى فى مختلف فنون الإبداع، والتى شكلت وجدان المواطن العربى، ومنذ بداية زمـن التنوير، ولحق به إبداعات أبناء مصـر فى الفـنون والآداب.. وحتـى دور الأزهر الشـريف قد تـراجع، وتراجع معه تيـار الاعتدال والوسطية، والفهم الصحـيح لمقاصد الإسلام والتعامل السوى مع مصادره الكليـة ونصوصه الثابتة، وفى المقابل زحف تيار يـعلى من شأن شطـحات الفكر والـسلوك وباتجاه الغـلو والإفراط، وتقدم تيار سلفـى متشدد ومسنود ماديا ومعنويـا، ولأسباب تراها إحدى دول النفط الخليجية لمصلحتها!!

....

....

ولكن الحـديث عن دور مصـر، كان أحيـانا أقرب إلى الاتهـامات، وأحيانا كثيرة يتجاوز القـصد وبالقول عن تآكل الدور أو الغياب المطلق، دون الالتفات إلى حقيقة مـهمة، وهى أن هناك دورا لمصر أقرب للأقدار التاريـخية، وأن هنـاك ظروفا طارئة وعـارضة قد تـعترض حـركة الدور

وفاعليته وتأثيره، ولكنها بالضرورة لا تلغى وجود "الدور" الذى قد يظل مجمدا ومترهلا تحت وطأة رؤية قيادات لا تدرك المفهوم التاريخى والحضارى لدور مصر، وأن مصر أول وحدة سياسية أو أول دولة موحدة فى التاريخ، هى دولة "دور" فإذا تنازلت عنه، كأنها تنازلت عن موقعها الجغرافى "وهذا غير ممكن" أو تنازلت عن تاريخها وحضارتها "وهذا غير محتمل ولا يمكن تصوره" ومن هنا كانت سطور هذا الكتاب مجرد إشارات إلى هذه الحقيقة الكبرى، واستنادا إلى قواعد التأسيس للدور المصرى وباستدعاء الشواهد التاريخية ومنذ بدايات ما قبل التاريخ.. كان القصد مجرد توضيح للفرق بين الدور، وحركة الدور، فهناك دور يرتبط بحقائق تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ، وهناك حركة لهذا الدور تخضع غالبا للمناخ العام السائد بين الصعود والهبوط.. وأن هناك مفهوما عاما للدور بصفة عامة، والدور المصرى بصفة خاصة، وبمعناه الأوسع والأشمل، وأن تعثر حركته لا تلغى وجوده.. ولم يكن القصد - أيضا - مجرد العودة إلى الماضى، وإن كان الماضى نفسه مفتوحا رغم مرور القرون، ويشكل رؤى الحاضر والمستقبل..

والتاريخ ليس علم الماضى، وإنما هو علم المستقبل.. وذلك هو الفرق بين التاريخ والأساطير..

□□□

ملاحظة

هذا الكتـاب ليس دفاعا عن مـصر ودورها، ولسبب بـسيط وهو أن مصـر المسكونة بـروح التاريخ وعـبقرية المـكان،كانت دائمـا كيانـا بالغ الخصوصيـة، وأكبر وأعلى شأنا من أن تكون فى مـوضع البحث عن أو الرهان على دورها، وهو أشبه ما يكون بالقدر المكتوب عليها. .

هذا الكتاب محاولة ـ مجرد محـاولة ـ للاقتراب من مفهوم الدور. . عن الدور نفـسه . . دور مصـر التاريخـى، وبصرف النظـر عن سنوات الهبـوط والتراجع، أو سنوات التـرهل والانكماش إلى الـداخل، وعدم الانتبـاه لأهميـة هذا الدور بمعناه الأشـمل والأوسع. . وبالضـرورة فإن الاقتراب من المعنـى الأكبر للدور قد يرد على تنبـؤات أو توقعات الذين يتحـدثون عن دور مصر بـرؤية مسطحة لـلتاريخ وللحـركة التاريخـية، ويدفعون أمامهم بـاحتمالات التهميش أو التحجـيم وتقليص قدرة الدور وفقا لأحكام المستجدات والمتغيرات الإقليمية والدولية، وهم يتصورون أن هذه المتغيرات سوف تفرض تقسيمات جـديدة للأدوار وفاعليتها وحركتها فى المستقبـل القريب!! أو الذين يتحدثون بما هو أقرب إلـى لغة التشاؤم سياسيـا وتاريخيا بأن دور مصـر يواجه عوامل وعناصر التـرهل والتآكل وحين انكمشت مصر داخل جلدها بفـعل ما أصابها من رؤية قاصرة لمن دفعت بهم الأقدار إلى قمة الهرم السياسى!! وهناك داخل إقليمنا العربى من يتحدث بـلغة المشاعر ـ عتـابا أو حسرة ـ بأن دور مصر لم يـعد كما كان فاعلا ونافذا ومؤثرا، وبمعنى أن ما كان لم يعد كما كان!!

وفى نفس الوقت فإن هذا الكتاب محـاولة أقرب إلى الرحلة السريعة مع وقائـع وأحداث وأحكام التاريـخ فوق جغرافـية لا يمكن للـعالم أن يستغنى عنها. . وهذه الالتفاتـة أراها ضرورية للاقتراب من مفهوم الدور

بمعناه الأشـمل، وحدود ومحـيط حركتـه، خاصة وأن التـاريخ حي فى الحاضر ومؤثر فى المستقبل.. ولا أتصور أن أحدا ينكر أن تاريخنا القديم ومواريثه الثقافية والحضارية سـارية فى أعماقنا.. والتاريخ علم من علوم المستقبل وليس مجرد قصص للاستمتاع..

فتحى خطاب

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

مدخل

ما بين منتصف صيف ١٩٩٠ (غزو العراق للكويت) وبداية ربيع ٢٠٠٣ (الغزو الأنجلو أمريكى للعراق) لم تهدأ الرياح الساخنة فوق المنطقة العربية، التى هبت عليها عواصف وضربتها الصواعق وسط أصداء هدير الرعد وسياط البرق.. وكان الجميع ـ بلا استثناء ـ يبحث عن حركة الدور المصرى، ثم راح الرهان يتزايد داخل المنطقة وخارجها على هذا الدور.. ويستوى الدليل والظن هنا!!

وهناك من اكتفى بالتنبيه والتحذير بأن هذا الدور قد تراجع أو تم تعطيله، وأن ذلك كله والنتائج التى ترتبت عليه، لم يؤد فقط إلى ترهل النظام العربى والذى لم يعد قادرا على أن يصلب عوده ويقف، ولكن قد ساهم هذا الغياب والتراجع فى تسهيل اختراق الأمن القومى العربى، وأن تجرى عمليات الإحلال والتبديل، وأن تطرح أفكارا لإعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة، وبعض هذه الأفكار وجدت طريقها للتنفيذ على أرض الواقع ولو بالسطو المسلح!!

ثم صال وجال كثيرون يدفعون أمامهم بمقولة أن دور مصر فقد أهميته فى مناخ عاصف.. أو أن هذا الدور خف تأثيره بمقدار ما حفت قوته!!

ولأن الصراع على الشرق الأوسط وفيه مازال مستمرا، فإن الحديث عن دور مصر مازال مستمرا أيضا..

والسؤال: هل تراجع دور مصر؟! أو هل فقد أهميته؟! أو هل يتم تعطيله؟!

فى حقيقة الأمر فإن هذا السؤال ـ وبأكثر من صيغة ـ كان يلح على

الكثيرين وقبل صيف ١٩٩٠ وما بعد الاحتلال الأمريكى للعراق، ومع كل ممارسات البطش والعدوان وصب النيران الإسرائيلية على الشعب الفلسطينى داخل الأراضى المحتلة. . ولكن السؤال ـ وفى جانب كبير منه ـ كان قاصرا على الجانب السياسى فى حركة الدور المصرى. . اقتصر على حركة الجهد السياسى والدبلوماسى. . وأى جهد أو تحرك سياسى هو رهن تقدير المواقف، وحسابات علاقات وموازين قوى إقليمية ودولية، وقبل كل هذا فإنه قد يعكس ـ غالبا ـ تباينا وتضاربا فى الرؤى حين يكون مجال الحركة أمامه محصورا بين الحيرة والارتباك، وفى هذه الحالة فإن بعض دواعى الخطأ فى المواقف، أو قصور فى الفكر والفعل السياسى يمكن تصوره!!

وأسوأ ما يمكن تصوره من حالة القصور فى الفكر والفعل السياسى، حين تتحكم "الشخصنة" فى السياسة الخارجية. . شخصنة السياسية الخارجية لمصر، أى شخص واحد يحدد اتجاهاتها وفق ما يريد!! وعلى سبيل امثال، كانت العلاقات المصرية ـ الإيرانية، نموذجا لتلك الحالة، ويقول السيد على لاريجانى فى هذا الصدد، أنه حين كان مستشارا للأمن القومى، زار القاهرة، والتقى الرئيس السابق مبارك، ومدير المخابرات المصرية اللواء عمر سليمان، وأن مبارك قال له إنه يريد شيئا واحدا من إيران، هو أن يسلموا لمصر شخصا اشترك فى محاولة اغتياله فى أديس أبابا ١٩٩٥، وإذا ما تم ذلك فستعود العلاقات طبعية بين القاهرة وطهران. . ويضيف لاريجانى ـ رئيس مجلس الشورى الإيرانى ـ أنه عاد بالاسم إلى طهران، وأن الأجهزة الأمنية ظلت طوال شهرين تبحث عنه، ولم تجد له أثرا فى إيران. . وبالطبع ظلت العلاقات بين

البلدين متوترة!!

وقد يرى البعض أن التحرك السياسى لإدارة الأزمات يمثل أحد أبرز أدوات وآليات حركة الدور ـ أى دور ـ وهذا صحيح.. ولكنه فى نفس الوقت لا يمثل المعيار الوحيد للحكم على دور دولة ما.. هناك بالضرورة جوانب كثيرة فى دائرة الدور بمعناه الأشمل والأوسع.. وكان دور مصر ـ مثلا ـ فى التنوير والتحديث داخل أمتها العربية، فاعلا ومؤثرا وخالقا.. وكانت مصر مجمع كل المطالبين بالحرية والباحثين عن المعرفة والعلم، وقد شكلت الثقافة المصرية ـ من إبداعات الأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين ـ وجدان الشعوب العربية، أو على الأقل فتحت أمامها آفاقا للمعرفة.. وكان هذا جانبا من دور مصر.. وحتى لو أن ما كان، لم يعد كما كان، وطوال السنوات الأخيرة والتى امتدت ٣٥ عاما!!

لا ينكر أحد ـ ولا يحق له أن ينكر ـ أن هناك دورات صعود وهبوط للدور.. أى دور.. وهو يرتبط بالضرورة بدورة التاريخ بين قرون نضج وحضارة، وقرون انهيار وتخلف، ولكن هذا لا يعنى أن الدور فى حالة غياب كامل، وهذا لا يحدث إلا فى حالة غياب الدولة ـ أى دولة ـ بأكملها عن الوجود!! ويتداعى إلى فكرى تشبيه طريف ـ ذات معنى وذات مغزى ـ لأحد المفكرين.. يقول: حين تكون صحة مصر النفسية ليست على ما يرام فإن حركة دور مصر تصاب بالخلل.. وقد لفت هذا القول نظر كثيرين وهم يرون أن المناخ العام فى مصر جعلها لا تنتبه لوجودها ـ وهو من الأصول المهمة للغاية فى منظومة العلاقات الدولية ـ ولا تنتبه لدورها ـ وهو أشبه بالقدر المكتوب عليها ـ وأصبحت مشفقة

على نفسها من مسئوليات هـذا الدور!!و هناك أيضا مؤثرات سلبية تثقل على حركة الدور المصرى فى محيطه العربى، ولكن لا تعطله، ومنها أن الوطن العربى فوق براكين مكتومـة لا يوحى ظاهرها بما هو محبوس فى باطنها، وأن الأمة أصبحت منقسمـة بالفكر والفعل على نفسها وفى ظل أجواء مزدحمة بالشـك، ومشحونة أحيانا كثيرة بنيـران التوتر، ومعرضة طول الوقت للمفاجآت!!

وما يعنـينى هنا ليست الأجـواء التى أثقلت على حـركة الدور، ولا المناخ العـام الذى لم يتنـبه لأهميـة هذا الدور ومسئـولياته. . ولـكن ما يعنينى هو الخلط الشديد من الذين يتـحدثون عن دور مصر برؤية قاصرة للتاريخ، ويدفـعون بنظرية أن للدور "قانون" يحدث أثـره كلما توافرت شروطـه!؟ إذن. . هم يتحـدثون عن أدوار مرحلـية أو موسـمية تـرتبط بحركة الأحداث ومتغيراتهـا، وتخضع بالضرورة لتقلبات الزمن!! دور ـ مثلا ـ له هدف تـفرضه تطلعات ومطامع الـدول. . ودور ـ مثلا ـ أقرب لوظيفة أو مـهمة يضطلع بها النـظام الحاكم خلال حقبة زمنـية مع توافر الشروط والأجواء المناسبة، ثم حيـن تختلف الظروف والأجواء مع حركة الزمـن فإن الـعمـر الافـتراضـى لهذا الـدور ينتـهى كـمـا انتـهى دور الإمبراطوريات العظمى حين لملمت أطرافها، وسحبت قواعدها الخارجية ولعقت جراحها، وانحشرت قواها المترهلة داخل حدودها. . وهذه الرؤية تجاهـلت تماما الاقـتراب من مـفهوم الـدور. . "ماهية الـدور" وحدوده ومحيط حركته. .

□□□

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

تمهيد..
قراءة فى عمر التاريخ

"إدرس الماضى إذا كنت تريد أن تعرف المستقبل"

أبو الفلاسفة كونفوشيوس

مصر ومنذ بدايات عمر التاريخ لـم تكن فقط مجرد دولة ترتكز على دور . . أو أنها دولة ترتكـز على موقع . . ولكنها كانـت محور الارتكاز بين ذراعى القوة . . الدور والموقع . . وأدركت مصر ـ منذ بدايات ما قبل التاريخ ـ أن لها دور . . وبالتحديد أن هناك دورا خلقت له أو خلق لها ـ لا فرق ـ وأن لهذا الدور مـوقعا متفردا، أو أن لهذا المـوقع دورا متفردا ـ لا فرق ـ ولذلك شهـدت مصر أول تقنين فى التاريخ الإنـسانى للحدود والتخوم، ووضـع تدابير الأمن لسلامتـها، فكان لملوك مصر قـبل أربعة آلاف عام ثلاث عـشرة قلعـة لحماية الحدود الجـنوبية، وقلاع وحـصون ومواقع حراسة على الجبهة الشرقية.

وترسيم الحدود فى هذا الزمن ومع بدايات عمر التاريخ ـ كان لتأكيد سيادة مصر على أراضيها، وضمان سلامتها، وتنظيم حركة المرور بمراقبة الداخليـن والخارجين لدولـة تمتعت بالنـفوذ السيـاسى وبالمركز التـجارى والثقافى . . وفى كـل هذا كان واضحا ترسيم جغرافـية "الدور" المصرى داخليـا وخارجيا وفى مـنظومة واحدة تشـير إليهـا ـ على سبيـل المثال ـ القواعد المتقدمة للاستطلاع وحماية الأمن القومى، فكان لمصر فى أقصى الجنوب عند الشـلال الثانى والشلال الرابـع رجال يرقبون مناسـيب المياه على الصخور وإبلاغ ولى الأمر بما يرون من حـال فيضان النيل واستقرار الأحوال عند المنبع حتى يتخذ ما يضـمن الإنتاج الأكبر وتجنيب البلاد ما قد تتعـرض له من أخطار . . ومثلا حرص المصريـون ومنذ طلائع الأسرة الأولى على الـنشاط الاقتـصادى فى مجـال التعـدين واكتشـاف الذهب وزيادة الإنتـاج منه، فتـمتـعت مصر بـالرفاهيـة وتيسـرت شئون الحـياة داخليا . . هذا أولا . . ثم امتد نفوذهم خارجـيا بالذهب ثانيا . . وتحققت بفضـله المنزلة السـياسية وسلـطان القوة، وأصبـح المصريون يشـترون به

الحلفـاء فى آسيا منذ عـهد تحتمـس الرابع . . وهى أول تجربة فى الـعالم لتولى الاقـتصاد دور قيادة الأحـداث وتوجيهها . . وهـذا ما يحدث الآن بلغة القرن الحادى والعشريـن وبعد أكثر من ٣٥٠٠ عاما . . أى أن الدور لا يرتكز فقط على قوة عسكرية . .

. . . . .

. . . . .

وكما يقال . . دعونا نضبط عدسـات رؤيتنا على منظور سليم وحتى نضمن لكـلامنا أكبر قدر من المـوضوعية والإنصاف . . فـإن دور مصر ـ وباستثـناء متفرد ـ يخـتلف تماما عن أى دور لأية دولة، فـهو دور يلفت الانتباه إلى أهمية البعد التاريخى للدور . . أهمية البعد الجغرافى للدور . . أهمية البعـد الحضارى للدور . . وأهمية البعـد الإنسانى للدور . . وهكذا يتسع الأفق وتتضح الصورة . .

وفى كل هذا . . كان دور مصر مـتواصلا فوق جغرافية سيـاسية حية ومع سنوات الهـبوط والنهوض . . سنوات الضعـف والارتقاء . . ولذلك فإن دور مصر ـ دون غيره ـ يضعنا أمام ثلاث حقائق :

الأولى : هـى ارتكـاز الدور عـلى عـبـقـرية "المـكان" وعـبـقـرية "الإنسان" . .

والحقـيقـة الثـانية : هـى ذلك البنـاء الحضـارى ـ كوحـدة واحدة ـ لأساسيـات الدور وقدراته وإمكانـياته، ثم تراكم طبـقات متلاصـقة من حكمة التجربة وحسن التدبير وتقدير الموقف.

والحقيقة الثالثة : أن دور مصر لا يـخضع لحسابات الطرح أو القسمة

أو الجمع وفقا لأحكام المستجدات وتطوراتها. . ولكنه دور ارتبط منذ سنوات ما قبل التاريخ بالإنسان المصرى. .

ودور مصر يرتبط بحقائق تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ. . ومنذ انفرد الشعب المصرى ودون غيره من شعوب العالم القديم بالسيطرة على عالم المادة، وبنى صرحا من المدنية المادية يعجز الزمن عن محوه. . ثم جاء الانتقال المبكر من النضال مع الطبيعة، إلى النضال مع النفس، والارتقاء إلى حقيقة الأخلاق وسلطان العدل. . وهذا الارتقاء الاجتماعى المبكر مع السنوات الأولى من عمر التاريخ ارتبط بقواعد العدل والحق والمساواة وحقوق الإنسان. . وساد الاعتقاد بأن جوهر الحياة هو "أنه من حق كل فرد التحلى بالأخلاق الفاضلة" . . ثم كان الانتماء لفكر التوحيد الدينى أهم دعائم المجتمع المصرى لمواجهة ما يحل به من ملمات، وما يعترض طريقه من مخاطر وتحديات. .

ثم نأتى للتطورات الاجتماعية داخل مصر ومع تلك البدايات المبكرة من عمر التاريخ. . دولة تعرف الكتابة والمعادن، وتسيطر عليها حكومة منظمة تنظيما ساميا، وتقوم بتشييد أضخم المنشآت المعمارية والتى لم يبن مثلها قط فى العالم القديم، ومما يدل على قدرة هذه الدولة وسيطرتها على العوامل المادية. . وهذه التطورات هى التى مهدت الأرض لحركة الدور، وأن تضع تقنينا ـ مبكرا ـ لمفهوم الدور المصرى فى ظل سلطة راسخة وإمبراطورية ناهضة أصبحت أول إمبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ، امتد سلطانها إلى الأقطار الأسيوية والإفريقية المجاورة.

وأعتقد أن هناك كثيرين لم يلتفتوا إلى حقيقة المفهوم الحضارى للدور المصرى. . وأعتقد ـ أيضا ـ أن هناك كثيرين لم يلتفتوا إلى أهمية البعد

التاريخى مدخلا إلى أية دراسة جادة وعميقة لهذا الدور، وبغير هذا تبدو الحقائق مبتسرة مفتعلة. . ولذلك لابد من الاقتراب من قواعد التأسيس لدولة تمثل المحور الجغرافى للتاريخ. . الاقتراب من حقائق التجانس بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان. . والاقتراب من هذه الملامح التى جعلت للدور المصرى خصائص تتيح له أن يستوعب اتجاه الآخرين وأن يؤثر فى محيط أبعد من حدوده الجغرافية

. . . .

ومن هنا كانت تلك الإشارات السريعة لدلالات ومعانى الارتقاء الاجتماعى المبكر للشعب المصرى. . والرؤية الشاملة لما وراء الحدود وما بعد الحياة من عالم آخر. . والارتقاء الفكرى باستشراف حقيقة الكون وخالقه ومنذ زمن كانت بقية الشعوب المتناثرة على مساحات جغرافية مبعثرة من العالم القديم تعيش على هامش البدائية الفقيرة والعشوائية. . وهى حقيقة اعترف بها الفيلسوف العظيم أفلاطون ـ والذى عاش فى مصر ثلاثة عشر عاما ـ وقال فى كتابه "القوانين" : ما من على لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر. .

إذن هل يمكن إغفال هذه الأساسيات ونحن نتحدث عن المفهوم الشامل للدور ـ دور أقدم دولة فى عمر التاريخ ـ لا أعتقد. . ولكن يبدو أن كثيرين تجاهلوا أو ربما لم يدركوا أن هناك عناصر خلق لثوابت وأهداف ومبادئ ومشاعر وفكر وانتماء وإبداعات وتجارب تساهم وعلى امتداد سبعة آلاف عاما فى تحديد ملامح واستراتيجيات هذا الدور وحركته وتأثيره.

والتاريخ القديم ليس فقط منقوش على الأحجار تشهد به الآثار،

ولكنه مواريث ثقافية وحضارية سارية فى الأعماق.

لذلك قلنا أن الحديث بصفة التحديد عن دور مصر يختلف تماما عن مجمل الأدوار، وعن مواقف الدول الحديثة النشأة.. وبالنسبة لمصر فإن منطق العقل يقول إننا لا نستطيع أن نفصل بين أية محاولة لتقييم دور مصر، أو طرح التساؤلات والتوقعات بصيغة التنبؤ بمستقبل الدور وإمكانياته وحدوده وتأثيره.. وبين "قواعد التأسيس" لهذا الدور.. ومنذ أدرك المصريون بوعى غير مسبوق ـ أن عقيدة الإله هى أعظم حقيقة فى الوجود.. وأن يتضمن "قسم" ملوك مصر قبل ٤٠٠٠ عام أو أكثر تمجيد الإله: "لأنه يعرف السماء ويعرف الأرض، ويرى جميع العالم فى كل ساعة".. ثم يأتى أخناتون قبل ثلاثة آلاف سنة مسبحا لله: "أنت خلقت الأرض، خلقتها وحدك لا شريك لك، كما شئت وعلى ما أردت.. الأرض بما فيها من بشر وأنعام وسائمة، وكل ما دب فوق ظهرها على قدميه وطار فى جوها بجناحين، وجميع الأقطار من الشام وكورش وربوع مصر".. وأن يكون كتاب الموتى والذى يوصف بأنه "إنجيل المصريين الأقدمين" هو أول توثيق لقدرة الإنسان المصرى على التسامى وتوظيف العقل باتجاه الخالق.. والانتقال من النضال مع الطبيعة إلى النضال مع النفس وإخضاعها لحسابات ما بعد الموت، وتحديد ما يخص البوابات النارية التى كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة.. والعبور إلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما فى سياحته.. وتصوير صيغة المحاكمة "الخلقية" فى عالم الآخرة وكيفيتها.. وقد توخى المصريون الحقيقة فى تصوير المسئولية الخلقية..

وهذه العقيدة ـ وهى من قواعد التأسيس ـ هى التى جعلت دور مصر

فاعلا ومؤثرا مع حركة الدعوة للأديان السماوية وانتشار عقيدة التوحيد.. وكان لمصر دور وموقف مع الأديان خاصة المسيحية والإسلام، وكانت مصر موئل الأديان وملاذا للإنسان.. وهذه العقيدة هى التى رسمت حدود العلاقة بين الأخلاق والسياسة ـ مبكرا ـ ولا تعارض بينهما.. وأن هناك تناسقا بين الأفكار الأخلاقية وأساليب الممارسة السياسية.. والمصريون كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى دور الأخلاق فى الحياة الاجتماعية، ولذلك أقام المصرى تاريخه كله على رفض مالا يستقيم مع خلقه، والاعتقاد بأن " الأخلاق " تأخذ صورة خاصة متميزة فى كل مجال بذاته.. فى الفن والقانون والسياسة والحياة اليومية..

....

....

وبعيدا عن روايات التاريخ والوقائع والأحداث على تلك المسافة الممتدة فى عمر الزمن ـ سبعة آلاف عام ـ فإن العودة إلى الماضى ليست بهدف تنشيط ذاكرة أمة، وكما يقولون فإن الماضى نفسه مفتوح، وأن تاريخ أى شعب هو المؤثر الأكبر على ضميره، وأن الأمم تتقدم حين تعرف تاريخها وتعتز بهذا التاريخ.. أو بمقدار ما يقول به أبو الفلاسفة كونفوشيوس: "إدرس الماضى إذا كنت تريد أن تعرف المستقبل".

□□□

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

قواعد التأسيس
عناصر القوة غير المنظورة

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾

قرآن كريم

صحيح أن نابليون بونابرت كان يعتقد وبوعى كامل لأحكام التاريخ والجغرافية أن مصر هى أهم دولة فى العالم.. ولكن هذه الرؤية الموضوعية والصادقة لم يتوصل إليها نابليون بإعجاز فردى للفهم وبفكر نافذ قبل أن تغرب شمس القرن الثامن عشر، فهناك كثيرون ممن سبقوا إلى إدراك هذه الحقيقة.. ومن أمراء الحرب.. ورجال الفكر ونبلاء الفلسفة وحكماء الجغرافية.. ومن الأنبياء والرسل.. وإلى لصوص العالم وقراصنة البر والبحر من الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط وحتى وديان وسهول وهضاب العالم القديم.. ومن الهكسوس والآشوريين والفرس والبطالمة وغيرهم ممن زحفوا إليها بحثا عن الثروة والنفوذ والزعامة وتوظيف الموقع.. وحتى تلك الرؤية التى حملت تطلعات المعز لدين الله وهو على عرشه فى المغرب حين أرسل قائده جوهر الصقلى فى مهمة تاريخية ليفتح مصر (وأن يبنى مدينة تقهر الدنيا).. وعجلة التاريخ لم يتوقف دورانها.. هذا صحيح.. ولكنها فرضت ـ وتفرض ـ هذا التساؤل وعلى الخط الممتد من عصر ما قبل التاريخ والتاريخ المعاصر: ولماذا مصر؟ وكيف استحوذت على هذا القدر من الأهمية؟ ولماذا انفردت بخصوصية الدور و"أسراره" وقدرات حركته على الحد الساخن الفاصل بين حدث وآخر.. بين المبتدأ والخبر فى جملة ما يجرى حولها؟ وكيف أصبح هذا الدور فى دائرة الترصد والترقب ويثير هواجس وقلق ومتابعات الآخرين رغم ثوابت المفهوم الحضارى والإنسانى لهذا الدور(؟؟)

....

عموما.. هناك تفسير مطلق وواسع يفسر كل هذا على أساس أهمية

الموقع . . ولكنى أرى هذا التفسير انحيازا مطلقا للجغرافية فقط وينتقص كثيرا من قدر حركة التقدم التاريخى على هذا الموقع . . ومن الخبرة التاريخية العظيمة للشعب المصرى والذى خلق لهذا الموقع ـ أيضا ـ أهمية الدور والتأثير ومنذ المرحلة الأولى للتكوين الاجتماعى والاقتصادى . . ومنذ بدايات التحولات الكبرى التى طرأت على الحياة الاجتماعية فى مصر . . وفوق ذلك ـ وربما قبله ـ النزعة الإنسانية والتطوير الإبداعى للشعب المصرى والذى واجه مبكرا صراعا مريرا وكفاحا متصلا بين الرى والجفاف، وبين الخصب والجدب، وهو يبذل الجهد فى سبيل استخلاص الأرض من الصحراء ليقيم أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر وبمفهومها القانونى : أى شعب متحضر وحكومة مركزية قوية وموقع له دور .

. . . .

. . . .

والعودة إلى قواعد التأسيس ليست مجرد محاولة لقراءة التاريخ وإنما هى رحلة بالخطوة السريعة مع وقائع وأحداث لها دلالات ومؤشرات لا يمكن إغفالها لفهم الذات الجماعية للمصريين . . محاولة لإعادة قراءة المقدمات والمداخل للدور المصرى . . والقصد . . ليس استجداء المكانة بالاستدعاء المستمر لذكريات الأمم وماضى الشعوب كما يتصور البعض، ولكن الاسترشاد بثوابت وحقائق وإنجازات، ولفت الانتباه للخصائص الفردية للإنسان المصرى والتى هى المكون الرئيسى للدور ومنها يستمد قوته . . وهكذا .

ولا أتصور الحديث عن دور مصر تحديدا دون الاقتراب من فكر ورؤية الإنسان المصرى حين أدرك مبكرا أن العلم هو حضارة المستقبل

وتمكنت مصر أن تصل إلى قمة مجدها فى علوم الطب والفلك والهندسة ومنذ سنوات ما قبل الميلاد بنحو ٢٦٠٠ عام وصحيح أن هذا الزمن شهد سنوات اضمحلال فيما بعد ولكن هذا لا يشطب قدرة الإنسان المصرى على الإبداع الفكرى ومنفردا فى ذلك الزمن.. وسنوات الانكسار والاضمحلال لم تهضم أو تسحق طاقات وقدرات الإنسان المصرى ولكنه فى كل مرة يعود لممارسة دوره الريادى الثقافى والفكرى وبنفس التألق والتفرد وعبقرية الإبداع.. أليس فى كل هذا دلالات ومعان تفرض نفسها فرضا ونحن نتحدث فى الزمن الراهن أو بضمير المستقبل عن الدور المصرى.

ونضيف وبنفس الإشارة السريعة لسنوات الضعف والانكسار والاضمحلال على مسرح الأحداث تحت حكم البطالمة والرومان والبيزنطيين وحتى نصل إلى سنوات الاحتلال البريطانى وكيف حافظ المصريون على هويتهم الوطنية ومعتقداتهم وتراثهم، وعلى روح الإنسان المصرى؟! وربما نجد فى كلمات المفكر الإغريقى "هيرودوت" تفسيرا لجانب من هذه الجوانب وهو يروى عن اشمئزاز المصرى من الإغريقى، لا يقبله ولا يصطنع أدواته أو يشرب من إنائه.. وأعتقد أنها أول تجربة فى التاريخ لتطبيق سياسة المقاطعة.. ولم تستطع سلطة الإمبراطورية الرومانية - مثلا - أن تحتوى المصريين أو خداعهم.. وإذا كان موقف الشعب المصرى اتسم بالرفض السلبى والمواجهة بالكراهية، إلا أن هذه السنوات وغيرها سجلت ثورات متتالية، وينتهى عمر الإمبراطوريات وترحل دون أن تنال من إرادة وهوية وروح المصريين.

ولم تكن كراهية المصريين للحكم الرومانى دافعا لدخول مصر فى

الإسلام وفتح الأبـواب والقلوب للدين الجديد . . وإنما هى قـصة أخرى تؤكد ما رسخ فى أعماق الإنسان المـصرى من دقيق الحس والشعور ومن القيم الأخـلاقية ـ والأخلاق صـورة من صور الوعى الاجتـماعى ـ ومن القدرة على اسـتشراف آفاق المستقـبل، ومن الوعى المبكر بمفهـوم العمق الاستراتيجى للهوية المصرية والأمن المصرى . . واتصالات بوشائج القربى والنسب، وفى الذاكرة أن السيدة هاجر المصـرية أم إسماعيل عليه السلام هى أم العرب . . وأن لـلعرب فيهم صـهرا وذمة . . ولعبت مـصر دورها تحت راية الإسلام والـعروبة . . وصدق رسول اللـه ﷺ بما روى عنه من قولـه لصحابـته عن أهل مـصر : "**فـإنهم قـوة وبلاغ إلـى عدوكـم بإذن الله**" . . "**ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله**" . . والقوة تتمثل فى هذا الدور .

وهنا نجد أنـفسنا على سـبيل المثال أمام إحـدى ملامح تأثيـر قواعد التأسيـس التى أشرنا إليها وخلـقت ذلك الوعى وحركة الفكـر التى تميز خصائص الشخصية المصرية وصلابتـها . . فحين أقبل الفاطميون وحاولوا على مدى قرنين كـاملين نشر المذهب الشيعى فى مـصر وتأسيس الأزهر قاعـدة لدراسة هذا المذهـب وأن يدعم هذه الدعـوة سيف المعـز وذهبه، وإجلال "آل" بـيت رسول الـله . . ثم . . ماذا حـدث بعـد مائتـى عام تقريبـا؟ انحسرت دولة الفاطـميين ولم يتركـوا فى مصر شيعـيا واحدا، وأصبح الأزهر مـنارة مذاهب أهل السنة والتـابعين، مع انفراد المـصريين بذلك الحب والإجلال لآل البيت .

. . . .

وتقترب الدكتورة نعمـات أحمد فؤاد من معان ودلالات سر " الروح

المصرية " . . من ملامح الشخصية المصرية ـ وهى المحرك الرئيسى للدور المصرى ـ وما انفردت به من طاقات وقدرات وإبداعات خلقت لـ موقع قيمة مضافة . . وهى تقول : لقد "فرنست" فرنسا شمال إفريقيا ، وفرضت انجلترا على الهند وتعداد الهند أربعمائة مليون نسمة فرضت انجلترا عليهم اللغة الإنجليزية ولكنها عجزت عن فرض لغتها على مصر وكان تعداد الشعب المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لا يتجاوز بضعة عشر مليونا ١٢,٧١٨,٠٠٠ وفقا للتعداد الرسمى للسكان الصادر من الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء سنة ١٩٨٦ ، بل تزعمت مصر العالم العربى بالأزهر فى الشرق والجامعة المصرية فى الغرب . . وكانت مصر أيضا قبلة العالم الإسلامى ، حتى المعز لدين الله الفاطمى جاء إلى مصر غازيا فإذا به يتخذ مصر قاعدة لدولته ومركزا للحكم وبدلا من أن تتبع مصر ، صار الجميع إليها ، منتمين وصارت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، بل نقل المعز إلى مصر فى طريقه إليها رفات أجداده !! لقد اختار . . ومن الطريف أن أخاه حرص على الزواج من مصرية قبطية ولكن المصريات جميعا قطرات صافية مقطرة من النيل . . وكل غزو خارجى تقابله مصر بغزو داخلى يمس من الدخيل الجوهر والكيان حين لم يستطع غاز أن يغير منها أو ينفذ إلى الصميم أو يمس الأعماق . . وتحضرنى وأنا أكتب إحدى الطرائف المصرية . . فقد ادعى العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر أنه يعرف الغيب من باب بث الرعب فقهقه المصريون وكتبوا له ورقة علقوها على منبر الأزهر ، وكان من عادة الخلفاء أن يصلوا مع الناس الجمعة بانتظام فى المسجد ، كتب المصريون هذين البيتين :

بالظلم والجور قد رضينا

وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أوتيت علم غيب

فقل لنا كاتب البطاقة

فأفاق المعز . .

لقد خانه الذكاء ونسى إنه فى مصر

ثم تستطرد الدكتورة نعمات فؤاد فى مقالها لتختتمه بالعبارة التالية: لقد مصرت مصر "المسيحية" وجعلتها فيها دون بقية البلاد: قبطية . . بهذه المناسبة الكلمة اليونانية "أجيبتوس" معناها مصرى والسين أداة التعريف فى اللغة اليونانية منها كلمة "قبطى" معناها مصرى سواء أكان مسيحيا أو مسلما . . وقد احتوت مصر "اللغة العربية" وتجاوبت مع الإسلام بكل ما يعنى التجاوب من تبادل الأخذ والعطاء . . لم يكن يوما عنصرا سالبا بل كان إيجابيا مؤثرا وأثيرا . . لقد وضعت مصر قاموس العربية الذى يرجع إليه عند مظنة الخطأ أو تحرى الصواب ـ المتحدثون بالعربية حتى أهل اللغة الأصليين . . القاموس الذى وضعه ابن منظور المصرى: "لسان العرب" إن اسم جمعية "لسان العرب" جاء توفيقا وتوثيقا . .

. . . .

. . . .

وعودة بأثر رجعى ـ مرة أخرى ـ إلى قواعد التأسيس ونكرر أنها ليست محاولة للهروب من الحاضر إلى الماضى أو مجرد نزعة للقياس

على شواهد الإطلال والأحداث التاريـخية. . وإن كنت أرى ـ مثلا ـ فى فنون النـحت والعمـارة للمصريـين والتى تنطـق بالقوة والشـموخ ،دون غيرهـا من آثار العالم القـديم. . وأن يكون "الكاتب" فـى هذه المرحلة المتقدمة من عمر التاريخ أعلى درجة ومنزلة فى الدولة. . إشارات تستحق الوقوف عندها باعتبارها تحمل تعبيـرا عن سمات الشخصية المصرية وقوة الإحسـاس بالنفس. . ولـكن هذا الاستطـراد مجرد إضـافة عابـرة على هامش الاسترشاد بإبداعات الإنسان المصرى. . صاحب الدور. . وصانع حركته الفاعلة المؤثرة. . وخالق القيمة المضافة للموقع.

ولا أتصور ـ مثلا ـ أن نتعامل مع هذه الحقـائق برؤية ضيقة نحشرها غالبا داخل جدران المتاحف ونحن نتـحدث عن الدور المصرى والشخصية المصرية. . فكيف يمكـن أن نغفل رؤية سبقت زمنها بنحو خـمسين قرنا لاستثمار الموقع وبحسابات التقـدير لأية احتمالات طارئة حين لم يكتف الإنسان المصرى بموارد المياه من نهر الـنيل وشق القنوات ومنذ عهد الملك "العقـرب" الذى حكم مصر من قـبل "مينا" مـؤسس الأسرة الأولى، ولكن بادر بحفر الآبار فى الجبال والسهول لـتوفير المياه فى المناطق النائية وعلى طريق القوافل وفى بقاع التعدين فى الصحراء حيث بدأت مع فجر التاريخ البعيد أولى خطوات التنقيب عن المعادن ومن صحراء النوبة جنوبا إلى صحراء سيناء شرقا واستـخراج الذهب والنحاس والزجاج الصخرى والعقيق وغيرها فضلا عن الألباستر والديوريت وصخور الجرانيت الأسود والأحمر. . مع الاستغـلال المنظم للمناجم وقيام مجتمـعات العمال إلى جوارها وتوفير أسباب الأمن لحركة النشاط الاقتصادى. .

ويقال ـ وأظن أن القول صـحيح ـ إن الأساس الاقتصادى للـمجتمع

هو الذى يحدد على المدى الطويل طبيعة العلاقات السياسية والأخلاقية على السواء.. وإلى هذه الدرجة كانت رؤية وحركة فكر وفعل الإنسان المصرى

وصحيح هناك من يرى أن "عبقرية" المكان خلقت "عبقرية" الدور.. وأن أحكام الموقع جغرافيا خلقت بدورها ضرورات وفروض وقدرات "الدور" نفسه بل وتحدد له ثوابت الانتماء والحركة، وتحدد له ضرورات الأمن وضرورات المصلحة القومية.. ولكن هذه الرؤية قد يفهمها الآخرون بمفهوم الفلسفة الجغرافية ـ إن صح التعبير ـ أو أنها مجرد دروس جغرافية على صفحات التاريخ.. وهى بالفعل دروس وحقائق لها صفة العمومية أى تنسحب على أى موقع لأى دولة تتمتع بمزايا الموقع وطبيعة التضاريس التى توفر لها نوعا من الحماية والحصانة يغريها بأن تلعب دورا تاريخيا!! ولكن "الدور" ليس مجرد فعل أو حركة أو تأثير يستمد قوته من داخل "أطلس".. البيئة الطبيعية وخطوط الطول والعرض، وإنما هو فى الأصل مفاهيم واعتبارات وقيم موضوعية وتاريخية وثقافية تنشأ مع أساس كل حضارة إنسانية، وفى حضنها..

وتاريخ مصر هو تاريخ الحضارة الإنسانية فقد كانت مصر أول دولة تظهر فى العالم كوحدة سياسية ـ أى خلق الدولة الأمة داخل حدود سياسية مرسومة ـ وهذه الدولة أقامت أول حضارة متكاملة الأبعاد عرفها التاريخ.. وهذا المفهوم الحضارى أعطى لدور مصر تفرده.. وهذا الدور كان أول تقنين إنسانى لمعانى ومطالب وأحكام وأهمية الموقع والمكانة، وتأثير تراث الحكمة والفكر واتساع المعرفة.. ثم كانت حركة التقدم الفاعلة المؤثرة فى وجدان التاريخ..

ودعونا نستطرد أكثر فى استكشاف أبعاد الدور المصرى ومكوناته.

أولا: إذا كان صحيحا أن التاريخ يملى على دولة ما دورها.. وبالنسبة لمصر فإن مسار التاريخ وحركته أعطياها الفرصة لتكون قوة أكبر من مجرد خطوط حدودها.. إذا كان ما يقال صحيحا ـ وهو هكذا بالفعل ـ فإن الجانب الآخر من الحقيقة يؤكد أن الدور المصرى استوعب حقائق التاريخ والجغرافيا.. وكان لمصر قدرتها على وضع كل هذه القوانين الطبيعية فى إطارها وبطاقة الجهد الإنسانى أولا.. وديناميكية متسامحة متطورة تستوعب المتغيرات وتعلو عليها.. حالة فريدة لتراكم عناصر من حضارات متتالية على الأرض الصلبة التى بناها الشعب المصرى بتفاعله مع بيئته ومحيطه الخارجى والتلاؤم والتناسق والتناغم مع الواقع.. فالمجتمع المصرى فى حالة اتساق مع نفسه وجغرافيته ومجموعة القيم الحضارية.. وبهذا المنطق الإنسانى فإن إيقاع الزمن كان يعطى لمصر كل الوقت الذى تريده.. وكأن الزمن يسمح لها بما لم يعد يسمح به لغيرها.

ثانيا: التفاعل الخلاق بين البشر والأرض التى يعيش عليها.. والتفاعل الديناميكى بين الإنسان المصرى ونهر النيل بعد أن سجلت مصر أول تجربة فى التاريخ الإنسانى للتحكم فى فيضان النهر ورصده وقياساته وكيفية الاستفادة منه وكيفية التعامل معه فى مواسم الجفاف ومواسم الفيضان.. وهذه إحدى منابع الدور المصرى، فتنظيم وضبط النهر ارتبط بالتنظيم الاجتماعى، وبدوره أثر فى هوية المصرى وذاتيته وفكره وتعامله مع الأحداث.. وبناء الأمة والتجسيد المحدد للشخصية المصرية ودورها.. فالشخصية المصرية وحدة واحدة عبر تاريخها تسعى لبناء

الحضارة وتحرص على الاستقرار، ولا تسعى للغزو والسيطرة والاستعمار، وترفض الخضوع لعدو خارجي وتتحمل المعاناة ولكن إلى حد ما ثم يكون رد الفعل حاسما. . ثم حقيقة السلام الذاتى الداخلى للإنسان المصرى والسلام الخارجى فى مواجهة السلطة الحاكمة، ولذلك فإن ظواهر العنف والإرهاب أو ظواهر التوتر داخل المجتمع كانت ظواهر عارضة على الشخصية المصرية الأصيلة التى تتصدى لهذه الاستثناءات العابرة، ولذلك أيضا لم يعرف التاريخ المصرى فى مجمله ثورات ضخمة أو اضطرابات دموية عنيفة، فالاتجاه العام للتاريخ المصرى ولسلوك الإنسان المصرى هو أسلوب حضارى. . يميل للمثالية والقيم تحت تأثير هذا البعد الحضارى. . وهذه الثلاثية. . كان لها تأثيرها من التفاعل بين: الإنسان المصرى، والنيل، والموقع. . كان لهما تأثيرهما على فكر مصر وهويتها السياسية ودورها. .

ثالثا: إذا كانت أحكام الجغرافيا والتاريخ تفرض على أى شعب ثوابت تحدد له الدور والانتماء. . فإن هناك نوعا من التراضى العام بين شعب مصر وموارده وجغرافيته وحياته على مدى سبعة آلاف عام. . وهذا النوع من التراضى العام له أيضا أحكامه، فالوطنية المصرية لها جذورها وقوة جذبها. . ولها فلسفتها بأن التاريخ ليس هو الذى يصنعنا ولكننا نحن أيضا نصنع التاريخ. . من هنا يمكن الإشارة إلى عناصر القوة غير المنظورة للدور المصرى وهذه العناصر تصبح أشد تأثيرا من عوامل القوة المنظورة. .

وصحيح أن أى دور لا يستند إلى مفاهيم غيبية أو مثالية ـ وإن كانت بالفعل تستحق الإشارة إليها هنا ـ فهناك أشياء ليست مادية وليست مرئية

- ولا يفهمها الآخرون - ولكن قوتها أفعل من المادى المرئى.. ليست مادية وليست مرئية، ولكن حساباتها هائلة.

رابعا: ولا يمكن نزع القداسة عن هذا الدور.. ولأمر ما قدر الله سبحانه وتعالى للمصطفين من أنبيائه ورسله أن يتجهوا إلى مصر ويقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا.. أقبل عليها إبراهيم أبو الأنبياء ويتزوج "هاجر" المصرية وتلد إسماعيل - عليه السلام - ومن إسماعيل تخرج أمة العرب.. وأقبل عليها يسوع المسيح - عليه السلام فى المهد وكانت به أسبق المؤمنين.. وعلى أرضها كلم الله موسى وبعثه للعالمين.. وكانت رحلة يوسف - عليه السلام - واستقراره فى مصر.. وصدق رسول الله ﷺ بما روى عنه من قوله فيها "**فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك خير أجناد الأرض.. فإنكم ستجدونهم نعم العون على قتال عدوكم.. ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله**".. ونقل عن الكندى قوله "لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر".. ولله سبحانه وتعالى حكمة هو بالغها فقد ذكرت مصر فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا بل أكثر من ثلاثين موقعا فيها ذكر مصر من القرآن صريحا أو كناية.. كما جاء فى كتاب جلال الدين السيوطى "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة"

وهل يمكن أن نستبعد دور مصر عن هذا التكريم والتفضيل.. أقصد المعنى والدلالات.. فى قوله تعالى: ﴿ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾.. إخلع نعليك، فهو أطهر مكان فى الكون.. فوحده دون سواه سمع صوت الله، ووحده دون سواه، تجلى فيه الله بوجهه الكريم..

الوادى المقدس طوى، بجباله وصـخوره، رأى مالا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر ،وحين سار فيه النبى موسى ـ عليه السلام ـ وأهله عائدين من "مـدين" بالأردن، إلـى مصـر، وفى وحـشة الـليل وبـرودته رأى "موسى" نارا، على مرمى البصر. . ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ..﴾ . . فلما وصل النار وجدها شجرة من نور، ونداه الله وأمره بأن يخلع نعليه لأنه فى الوادى المقدس. . وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ ومن هنا بـدأت نبؤة مـوسى عليه الـسلام. . وعلى جـبل يطل عـلى الوادى المقدس وقف "موسى" مناجيا ربـه، وطالبا أن يرى وجهه الكريم، ولم يرد الله طلب نبـيه، ولكنه ـ سبحانه وتعـالى ـ طلب من "موسى" أن ينظر إلى جـبل عال أمام الجبل الذى يقف عـليه، فلما تجلى اللـه للجبل جعله دكا، وخر "مـوسى" صعقا، ومنذ هذا التاريخ صـار جبل موسى (ارتفاعه عن سطح البحر ٣ كيلو مترات) وجبل المناجاة مزارين يقصدهما كل من يريد أن يـرى الأرض التى تجلى فيـها الله. . ويحتـضن الوادى المقـدس واحد من أقـدم أديرة العالـم "دير سانـت كاترين" وهـو الدير الوحيد فى العالم المقام به مسجد. . وقدر الله لمصر هذا الموقع. . عبقرية المكان.

دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

العسكرية المصرية

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

قرآن كريم

أتصور أن الخطأ ـ أو الخطيئة ـ هو أن نتعامل مع دور مصر برؤية مسطحة لأن الأمر يرتبط بالتفاعلات التاريخية والحضارية والتى لا يمكن إغفالها ونحن نتحدث عن هذا الدور.. ولأن الجغرافيا والتاريخ ـ معا ـ والتجارب والمواريث الحضارية لقرون طويلة خلقت ما يمكن أن نطلق عليه "قواعد التأسيس" للدور المصرى.. ومن هنا يمكن قراءة ملامح المستقبل.. وإدراك حقائق القوة وحركة الدور وتفرده.

....

....

وهناك من يحاول أن يقترب من هذا الدور بأفكار وتصورات لا ينقصها سوء الفهم بقدر ما تفيض بسوء النوايا، وتستند إلى حسابات الوهم ـ والمسألة ليست مجرد آراء أبداها أصحابها، ولكنها تصورات وتقديرات "عشوائية" تمتد فصولها إلى سنوات ما قبل التاريخ.. ومن "أبوبى" ملك الهكسوس حين تصور أن دور مصر انكسر تحت ضغط الضعف السياسى للبلاد.. وإلى "هولاكو" و"غازان" وتصورات المغول أن دماء الشرق سوف تزحف أنهارها على الدور المصرى ويستقر لهم ملك الشرق والمغرب.. ومن البطالمة إلى "جان دى بريين" و"لويس التاسع" وتصوراتهم بأن الصليبيين لا مستقر لهم فى الشرق باستقرار مصر، وأن هزيمة الدور المصرى وإجهاض تحركاته البداية الصحيحة لترسيخ قواعد سلطاتهم وسلطانهم.. وهكذا سلسلة متصلة الفصول من قصة طويلة تؤكد أن مصر كانت استثناء نادرا فى العالم فقد استطاعت السيطرة على أوهام وأحلام ومطامع الآخرين.. وأن تعيد تصحيح مسار التاريخ.. ولا أظن أن أحدا يختلف معى بأن القوة العسكرية هى أحد

عناصر أو دعائم هذا الدور. . وصحيح أن القوة العسكرية ليست وحدها القوة الدافعة لحركة الدور، ولكنها تبقى - دائما - قاعدة الانطلاق والتأثير. . وإذا كانت حقائق القوة للدور وتأثيره يصنعها البشر أولا قبل الموقع وأهميته ثانيا، فإن العسكرية - دائما - تأتى تجسيدا لخصائص وهوية وفكر وقيم ومبادئ هذا الدور.

وهكذا كانت العسكرية المصرية. .

ويقول الدكتور جمال حمدان : أن درس الحروب الصليبية هو درس استراتيجى أساسا، يؤكد لنا خطورة الموقع، وأن تحرير الأراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام، وحين تحقق هذا كانت "حطين" صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، هى "أرما جدون" الصليبيات وبداية نهايتها، وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية، ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات إلى مصر حيث أدركت بالتجربة المريرة أنها قطب المنطقة استراتيجيا وبشريا. .

وأن الإمبراطورية العثمانية حين اتجهت إلى الشرق العربى وذلك ابتداء من العقد الثانى من القرن السادس عشر أى بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لأول مرة فى الأناضول، فقد اتجه الزحف إلى مصر رأسا عن طريق سوريا التى كانت تابعة لمصر المملوكية، وهذا الاتجاه المحدد يؤكد ما سبق أن أوضحته الصليبيات من أن مصر هى مفتاح المنطقة العربية، لاسيما أن كل ثقل الدولة العربية الإسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول. .

وربما وجدنا أنفسنا الآن فى حاجة إلى التفاتة سريعة إلى الوراء.. إلى الخبرة التاريخية العظيمة للشعب المصرى والتجارب المستقرة فى تضاعيف الزمن.. وهذه نقطة أريد أن أشرحها أكثر حتى لا يقال أنه استدعاء ذكريات الماضى أو القياس على أطلال وأحداث تاريخية.. رغم أن من يتجاهل التاريخ هو من ينسى أن البذرة هى التى تصنع الشجرة..

....

والعسكرية المصرية ودورها ـ على سبيل المثال ـ تعد نموذجا للتعبير عن هذه الحقيقة.. وأقصد حقيقة وحدة البنيان لحركة الدور، وكيف أن عبقرية الإنسان المصرى لا تعتمد على أسطورة غيبية ولكن تستمد روحها من التجارب التى تضيف إلى بعضها البعض عمقا، ودروسا مستفادة، وخبرات إنسانية تسكن فى أعماق الوجدان المصرى، ثم شكلت ملامح الشخصية المصرية ـ وهى المحرك الرئيسى للدور ـ وما انفردت به من طاقات وإبداعات.. ولست أريد هنا أن أقوم بعملية تطبيق كاملة لهذه العوامل والقواعد، فذلك بحث طويل، ثم أن هناك من هو أقدر على القيام به ـ علما وفكرا وتخصصا ـ ولكن يبقى هدفى هو أن أشير إلى تأثير "قواعد التأسيس" على الدور المصرى.. أن أشير إلى ترابط وتلاحم وتناغم الحركة التاريخية من تجارب، وتطوير إبداعى، ومواريث حضارية.. وكيف أن الإنسان المصرى بعد أن تحدى موجات من استفزازات غرور القوة، ومن التشكيك، وفقدان الثقة فى قدراته.. أدار مواجهات عسكرية حاسمة، وبفكر عسكرى منظم، وسجل أول نظريات عسكرية فى التاريخ الإنسانى للتخطيط الميدانى، وتقسيم الجيش إلى قطاعات، ومواجهة العدو بأسلحته بعد تطويرها، وفرض أسلوب القتال

عليه. . وبعد الانتصار يتحول ليعيد بناء دولته من جديد. . ومن زمن الهكسوس إلى زمن المغول. . هو نفسه الإنسان المصرى الذى كان معجزة حرب أكتوبر وآيتها الكبرى وفى ظروف وأحوال ومهاترات وحملات تشكيك تقارب تماما ما حدث قبل ثلاثة آلاف عام وما بعدها. .

إذن كانت العبقرية العسكرية تكرر نفسها وتعيد تصحيح مسار التاريخ. . ولو كان هناك منصف لأحكام التاريخ ولقدرات الإنسان المصرى. . لو كان هناك من يجيد قراءة التاريخ بموضوعية وفى ذلك التوقيت بعد نكسة ١٩٦٧ لأدرك وبوعى كامل ما سوف يحدث ويكون. . ومهما كانت العقبات والتحديات. . صحيح بعد نكسة ١٩٦٧ مباشرة كان القرار المصرى بقبول التحدى. . والقرار بالطبع مرادف دقيق لمعنى الإرادة المصرية ـ وهى خارج حسابات الهزيمة ـ لأن الإنسان المصرى الجريح وقتها بدأ سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة بعد أيام فقط من النكسة، حدث هذا فى معركة رأس العش وانتصر. . ثم إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات بصاروخ من طراز "ستايكس" أثار اهتمامات وأبحاث الفكر العسكرى، وفتحت هذه العملية المصرية عصرا جديدا دخلت به الحروب إلى عصر الصواريخ ومرحلة جديدة فى تاريخ السلاح. . ثم حين أرسلت إسرائيل الغواصة "داكار" لاستكشاف القاعدة الرئيسية لقوارب الصواريخ تم إغراقها أيضا بقذائف الأعماق وتحولت إلى مقبرة حديدية تضم ٧٨ ضابطا وبحارا إسرائيليا. . وهكذا. . لم تهدأ حركة المواجهة رغم أن حديث النكسة فى الأيام الأولى كان مريرا، والقلوب تنزف بالحسرة والوجيعة. . وبقيت خصائص الإنسان المصرى ـ المتفردة ـ لم تطلها هزيمة عسكرية، وسجلت العسكرية

المصرية تجربة لا تزال حتى الآن فى منطقة الظلال ولم تحظ بما تستحق من دراسات وأبحاث وقراءة وقائع ما جرى.. رغم أنها وبكل المقاييس تجربة فريدة لإعادة البناء والتخطيط والتنظيم والتمهيد لمعركة الثأر والتحرير، وكل هذا تحت ضغط ظروف بالغة القسوة والمرارة، وفى ظل أجواء قاتمة وحزينة، والإحساس العام بأن كل شىء آيل للسقوط والانهيار.

ولكن.. كانت المفاجأة الحقيقية هى إرادة الإنسان المصرى، والحس التاريخى للمصريين وعطاء التجارب فى حياة الأمم.. وما حدث جاء على عكس كل التوقعات والتقديرات والتى أقامت حساباتها على رؤية مسطحة للتاريخ وللحركة التاريخية، واكتفت بمنطق موازين القوة فقط وبالواقع المنظور أمامها.. وتجاهلت القيمة الحقيقية لخصائص الإنسان المصرى.. ومن هنا كانت المفاجأة بعد أن أصبحت المبادأة فى يد المصريين بعد تنشيط الموقف العسكرى، وتسخين جبهة القتال، وتحديد استراتيجية المراحل الثلاث: الصمود ثم الردع ثم التحرير.. وخلال هذه الأيام الأولى من صدمة النكسة كان الجندى المصرى قد عرف طريقه للعبور إلى الشاطئ الشرقى من القناة.

ومع بداية السبعينيات خيمت حالة اللاحرب واللاسلم ومعها فتحت الأبواب للمبالغة فى الانهزامية اليائسة، وزحفت حملات التشكيك ترمى بسهامها فى كل اتجاه.. كأنه قد كُتب على مصر دائما أن تواجه بهذه الحملات والتشكيك فى قدراتها ودورها!! وانطلقت كتائب التساؤلات تدفع أمامها بعلامات التعجب الساخرة: كيف يتصور المصريون أن لهم القدرة على المواجهة والتغيير والتحرير؟! وأجمع الخبراء العسكريون فى العالم وبغير استثناء أن عملية العبور أقرب للمستحيل لأن ميزان القوة

وبكل المعايير لصالح إسرائيل، وأن قناة السويس نفسها حاجز مائى من أصعب الحواجز، وأن خط بارليف سلاسل متصلة من المواقع الحصينة، وأية محاولة للتحرك المصرى تتطلب تضحيات ليس من السهل قبولها.. وماذا تفعل مصر وكل ما تمتلكه يتم تصنيفه تحت قائمة الأسلحة الدفاعية.. وهل بمقدور الفكر العسكرى المصرى أن يجد حلا لمعادلة المستحيل(؟!) باختصار تم حجز الدور المصرى - وكما يرون.. وبتصوراتهم وتوقعاتهم - فى دائرة العجز خلف حاجز الخوف.. وأن أى حركة للدور المصرى لا تعدو كونها مغامرة مع المجهول.. وأن تغيير الأمر الواقع رهن تحركات وتدخلات ومساعى الآخرين مع توافر شرط مرونة الموقف الإسرائيلى!! ثم ماذا حدث(؟) فشلت كل التوقعات والتصورات والاستنتاجات.. وبدأت ملحمة العبور، وهى مفاجأة الدور المصرى.. وأصبح العالم أمام حدث فريد فى تاريخ الحروب.. تجربة عسكرية قلبت موازين النظريات المتعارف عليها.

....

ولم يتصور أحد أن المصريين كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى قدراتهم.. وإلى إبداعات الإنسان المصرى.. وإلى حكمة التجربة والتى تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ.. فمنذ ثلاثة آلاف عام تقريبا كانت تجربة المواجهة مع استفزازات وتحرشات، وممارسات حماقة القوة وغرورها بعد احتلال الهكسوس لشمال مصر، واستقر بهم المقام فى الدلتا، واتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية، واستمر حكم هؤلاء الملوك حوالى قرن ونصف القرن من الزمان - وهو عصر الاضمحلال الثانى - وسادت أيضا أجواء التساؤلات مع اضطراب

الأحوال والأمـور: كيف يـتمكن المـصريون من تحـرير بلادهم وبـعد أن بلغت حـماقة الـهكسوس إلى هـذه الدرجة التى يـحتجـون معهـا على "أفراس النهـر" وأصواتها المزعجـة التى تقلق نوم ملك الهـكسوس على بعد ١٢٠٠ كيلومتر(!؟!) وكيف يواجـه المصريون عدوا استوطن وامتلك أدوات التكنيك الحربى فـضلا عن الخبرة القتالية لموجـات الهكسوس التى هبت كاسحة ـ وكما يقول المفـكر الراحل د. جمال حمدان ـ واستطاعت أن تضـرب من قلب الاسـتبس وعلـى طول هضاب ومـرتفعـات وسط جنوب غرب آسيا وحتى الوصـول إلى مصر(!؟!) ورغم تساؤلات اليأس والاحبـاط، سجل المصريـون أول حرب تحررية كـبرى فى تاريخ الـعالم وبعد أن أخذوا عن الهـكسوس ـ أنفسهم ـ العجلات الحـربية، والخيل، والقسـى المزدوجة، وألوانا من الأسـلحة والسيـوف مع تطوير التـكنيك الحربى حتى تمـكن "أحمس" من طرد الهكسوس وشطـب وجودهم بعد احتـلال دام حوالـى ١٥٠ سنة.. ثم بدأت حـركة الـدور المصرى بـعد الانتصـار بالاتجاه شـرقا وجنوبا، حـفاظا علـى الحدود، وتأميـنا لطرق التجارة والنقل، وضمانا لموارد الثروة..

لذلك مـدت مصر سيـادتها من سوريا وأعـالى الفرات فى الشـمال الشرقى وإلـى الشلال الرابع فى السـودان جنوبا ـ ويبدو واضـحا الوعى المبكر بضرورات تأميـن العمق الاستراتيجى، وخلق قواعد مـتقدمة لصد أية محاولات للعدوان والغزو ـ وازدهرت الحياة فى مصر، ومع الاستقرار الداخلى ترسـخت قوة العسكريـة المصرية.. ويجمع المـؤرخون على أن "تحتمس الثالـث" أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقـسيم الجيش إلى قلب وجناحين، وتشكيل مجلـس أركان حرب يتشاور معه فى وضع

الخطط الحربية. . وكانوا يدركـون أن خط الدفاع الأول على مصر لا يقل عمـقا عن تخوم الـشام وهذا ما حدث أيـضا ـ وبنفس الرؤيـة ـ فى عام ١٥١٧م حين سـارعت مصر لملاقاة الزحـف العثمانى خـارج حدودها، ولكن تمزقـت المقاومة المـصرية فى "حلـب" وتراجعت إلى خـط الدفاع الثانى فى قلب القاهرة.

وتكررت التجربة مع غزو الآشوريـين ومع احتلال الفرس. . وعجلة التاريخ لم تـتوقف. . ثم أدرك الصليبـيون بالتجربة المريـرة أن مصر هى قطب المنطقـة استراتيجـيا وبشريا وهى مفـتاح المنطقة العـربية. . وأنه لا مستـقر لهم فى الشـرق طالما استمـرت المقاومة المصريـة. . وفى النصف الأول من القرن الثالث عشـر شهدت مصر مواجهة حاسمـة مع موجتين صليبيتين أبيدتا فى برارى وسـهول الدلتا. . وأعتقد أن أول وآخر انكسار للمغـول فى عين جالـوت عام ١٢٦٠م يحمل قـدرا كبيرا من حـسابات الاعتبار التـاريخى وأثره على عطاء الإنسان المصرى. . يحمـل قدرا كبيرا من عناصر القـوة غير المنظورة الكامنة فى وجدان المقـاتل المصرى. . فلم يتوقع أحد أن ينتهى المد المغولى على أيدى المصريين. . وكان ذلك منطقيا ومقبـولا لعدة أسباب. . منهـا: إن برابرة التتار تحت زعـامة "هولاكو" وصلوا إلـى العراق بعـد مسيـرة طويلة حـفرت تاريخـها بالدم والـعنف والتخريب والـتدمير الرهيب، وتدفعـها موجات سابقة مـن زمن جنكيز خان وكوبلاى خان تكتـسح فى طريقها الدول وجيوشهـا. . وبعد فاجعة بغداد التاريخية ونهاية الخلافة العباسـية يتقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر. . وفـى المقابل كانت الأوضـاع فى مصر غيـر مستقـرة، والصراع يحتد بين المماليك على السلطة والحكم، والتآمر يخترق ميليشيات ورجال

كل فريق، وكانت هموم المطامع والمغانم تسيطر على الساحة وتنعكس على تصريف شئون البلاد. . ومنطق العقل يقول: أن الأبواب مفتوحة أمام موجات المغول وانتصاراتهم المتلاحقة، وأن ميزان القوة والخبرة القتالية يميل لصالحهم. . ثم تقدمت مصر بقيادة "قطز" لوقف زحف المغول عند خط الدفاع الأول، وانطلقت الكتائب والألوية تشق طريقها وسط الخطر إلى الشام. . وتبدأ المواجهة فى "عين جالوت" ويتلقى المغول أول وآخر انكسار لهم. . ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن من الزمان مع تيمورلنك ليكتسح فارس والعراق وشمال سوريا حتى دمشق ولكنه عجز دون جنوبها أمام المقاومة المصرية. .

والقصة طويلة ومتواصلة. .

. . . .

. . . .

ورغم أن العسكرية المصرية طالت عشرتها مع السلاح والحرب والمواجهة أكثر من خمسة آلاف عاما إلا أنها القوة العسكرية الوحيدة فى العالم التى كانت حروبها حروب تحرير بالمعنى القانونى والواقعى، ولم تكن قوة غزو وتدمير واحتلال. . وفى الأحوال التى خرجت فيها إلى ما هو أبعد من حدودها جنوبا وشرقا كانت مواجهات ردع وتأمين للأمن القومى، أى حرب دفاعية وقائية فى حقيقتها. . والتحركات الخارجية للجيش المصرى وخلال السنوات العشرين تقريبا بين عهدى محمد على وإبراهيم باشا كانت استجابة لضرورات أمنية، واستجابة لأحكام الدور المصرى بالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده، والتفاعل مع ما يحدث من تغيير فى أوضاع المنطقة ـ وقتئذ ـ والتى كانت هدفا لأطماع

الأقوياء.

وحتى حين خرجت الجيوش المصرية إلى الشام فى عهد فراعنة مصر تحتمس، ورمسيس، فقد كانوا يـدافعون عن أمن مصر القومى فى الجناح الشرقى من العمق الاستراتيجى. . ولم تكن هذه الرؤية عقيدة استراتيجية فى فكر فراعـنة مصر فقط. . ولكن وبـنفس الرؤية تقريبـا خرج مماليك مصر عـن حدود الوجه الإقليـمى الضيق لمصر لـيصدون موجات الـتتار والصليـبيين. . وفى نـفس النطاق الاستـراتيجى لأ حكام الأمن الـعربى المشترك.

وفى كل الأحـوال. . كان واضـحا أن الموقع هـو الذى يتحـكم فى الموقف. . وهى ثوابت سبقت نظرية ألمانيـة فى القرن التاسع عشر تحدثت عن نفس المبدأ.

وفى كل هذا كان واضحا أيضا أن مسئوليات العسكرية المصرية أقرب إلى تلك الكلمات لزعيم الصين ماوتسى تونغ "احملوا السلاح دفاعا عن حدودكـم وتأملوا فـى نفس الوقـت أحوال العـالم وراء هذه الحـدود. . وافهموا"

وقد سبـق للعسكرية المـصرية فى مجالـها داخل ساحات الـقتال أن قدمت لـلتاريخ حصـيلة تجارب متـعددة لتنشيـط الذاكرة تثبت أن مـصر تستعيد حجمها الطبيـعى فى أعقاب صدمات الانكسار. . وحتى فى هذه اللحظات من عـمر التاريخ ورغم كل المـصاعب لا يختل التـوازن ويبقى اليقين المـتجدد بأنها قادرة على الحـركة. . وأن تنجز بهذه الحركـة مهاما كبيـرة على أرضها وحولها. . وقـد ترجمت العسكرية المـصرية ذلك فى آخر تجربة لها طـرحتها أمام التاريخ فى عام ١٩٧٣ بـإعادة البناء والعودة

بسرعة إلى الميدان لتقاتل.. وما تحملته وحققته تحت النار، كان ـ ولا يزال ـ معجزة بكل المقاييس.

....

....

والقوة العسكرية ـ بالفعل ـ ليست وحدها (القوة) المحركة والدافعة لأى دور لأية دولة.. فى أى عصر وزمن.. ولكنها ـ فى نفس الوقت ـ عنصر من أهم عناصره وفى نطاق حقائق وعلاقات وموازين القوة.. وأعتقد أنها واجهة الدور، والتجسيد العملى للأهداف والمطامع والهوية والخصائص.. وتأتى فى المقام الأول تعبيرا صادقا عن المفهوم الحضارى والإنسانى للدور.. ومن هنا تبرز العسكرية المصرية ـ تحديدا ـ فى مقدمة الحديث عن الدور المصرى ولمن يريد أن يفهم ويدرك حقائق هذا الدور وعلى ضوء المنظور وغير المنظور من أثر العمق التاريخى..

ويبدو واضحا من هذه الإشارة السريعة أن الموروث الحضارى داخل وجدان الإنسان المصرى من الوعى المبكر بالقيم الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية.. وتجسيد العسكرية المصرية لحقيقة أن المصريين كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى دور الأخلاق فى التاريخ الإنسانى، ولذلك أقام المصرى تاريخه كله على رفض مالا يستقيم مع خلقه.. وراح ذلك كله يظهر فى ميادين وساحات الحرب من خلال التعامل مع الأسرى والجرحى من العدو ـ وأمامنا ما حدث فى حرب ١٩٧٣ وبشهادة الأسرى الإسرائيليين أنفسهم.. وفى المقابل نجد صورة بربرية.. وحشية، لا إنسانية من قبل الجيش الإسرائيلى، وأمامنا أيضا ـ ملف المذابح الجماعية للأسرى المصريين.. والفرق هنا يرجع إلى ارتباط

العسكريـة المصرية بدلالات ومعانى الارتقـاء الاجتماعى المبكـر للشعب المصرى وأهمية البـعد التاريخى وأثره.. أما تاريخ العسكـرية الإسرائيلية فيبـدأ قبل بضع سنوات وعـندما صدر قرار "بن جـوريون" سنة ١٩٤٩ بضم كل المجموعـات ـ العصابات ـ القتالية التـى خاضت معارك ١٩٤٨ وما قبلها وارتـكبت المذابح ومنها عصابة الهاجـاناة، فى جيش واحد هو "تساهل" الجيش النظامى الإسرائيلى..

وبالطبع فـإن الجيش الإسرائيـلى هو واجهة دولة طـفيلية، ويجـسد فلسـفة مجـتمع بـأسره بأن الوجـود والاستقـرار رهن تفوق قـوة الردع والبطش، بـل وإن ما تحلم به إسـرائيل من دور يرتبـط أساسا بقـدراتها العسكريـة.. ولذلك ليس غريبا أن تـكون المؤسسة العسـكرية هى قلب الحياة الإسرائـيلية ذاته، وأن تعتمد عـقيدة الحرب الإسرائيليـة على كافة الوسائل غير المشروعة.. وإذا كانت العسكرية الإسرائيلية لا تؤمن بعقيدة الاستعداد للتضحية فهى ترتكـز غالبا على دعم القوى الخارجية المساندة، وبمعنى انتـظار الإنقاذ من الآخريـن (اعتمدت علـى بريطانيا وفـرنسا ثم الولايات المتحدة) إذن فالعسكرية الإسرائيلية فى نهاية الأمر نموذج مجسم (ماكيـت) لدولة إسرائيل نستـطيع من خلاله قراءة مـا حدث على أرض الواقع من خطوات صناعة وطن قومى لليهود وما يحدث ويجرى الآن!! وكيف أن الحركـة الإسرائيلية ـ أو ما يـمكن أن نطلق عليه الـدور ـ تقفز خطواتها أو تتراجـع وفقا لمعايير المساندة والدعم والإنـقاذ من قوى دولية بعينهـا!! ونظرا لافتقاد الجـذور أو البعد التاريـخى وأثره فإنها تسـتعجل النتائج وتلهث وراء جنى ثمار تحركها بـأقصى سرعة ممكنة.. فهى حديثة النسب للزمن والتاريخ وتخشى أحكامه!

وإذا كانت العسكرية البريطانية والفرنسية وخلال القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين قد طرحت أمامنا نموذجين لعسكرية المصالح التجارية والمواجهات التقليدية، ودبلوماسية الزوارق المسلحة، والاحتكار القائم على القوة العسكرية.. وأن تبنى كل من الإمبراطوريتين السابقتين - بريطانيا وفرنسا - دورهما على زحف القواعد العسكرية إلى ما وراء البحار والمحيطات فى محاولة لتأكيد زعامة السيادة والسيطرة وبعد أن أصبحت القوة الاقتصادية والسياسية رهن غنائم ومكتسبات القوة العسكرية.. وكيف كان الصلف والغرور البريطانى راجعا لامتداد وتشعب وسيطرة هذه القوة..

....

إذا كانت هذه الصورة من الزمن الماضى القريب تجسيدا لدور العسكرية، داخل المفهوم الشامل للدور وتأثيره وتحركاته ومطامعه وأهدافه.. فإن العسكرية الأمريكية - حاليا - تبقى النموذج الأمثل للكشف عن حقائق الدور الأمريكى وأهداف السيادة الأمريكية وسياسة القوة التى تفرضها على العالم، والتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة، وفرض دور الوصاية الكاملة على شئون العالم، وأن تندفع فى طريق التحرش والصدام وبمفهوم أن الحل العسكرى - الحل بالقوة العسكرية - هو أقصر الطرق لتحقيق الأهداف وفرض الهيمنة، وبالتالى تعددت سلسلة القواعد العسكرية التطويقية إلى جانب سياسة الأحلاف.. وبهذه الرؤية - وكما يقول الدكتور جمال حمدان - أصبحت الولايات المتحدة وبوجودها العسكرى من قواعد وأساطيل جارا غير مرغوب فيه تشترك حدوده مع حدود كل دول العالم تقريبا..

وصحيح - كما يقال - أن الديناميـة العدوانية الأمريكية ترجع إلى أن الولايات المتحدة وبحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية قد وصلت إلى الصـدارة العالمـية قبـل الأوان وقبل أن تكـون مؤهلة لـها بالتـاريخ وبالتجـربة والنضج. . إلا أن المنطق العدوانـى والقوة العسكرية الـباطشة الطامعة تـرجع فى حقيقة الأمر إلى تـأثير قواعد التأسيس لـدولة حديثة النشأة نسـبيا اعتمـدت على منهجية الـشراء والاستئجار والـضم وسرعة الانقضاض للتـوسع والتمدد. .وحين بدأت فى أعقاب حـرب الاستقلال ١٧٨٣م فى التشكيل الجغرافى والتكوين السـياسى للدولة بالاستيلاء على فلوريدا من إسبـانيا، وشراء لويزيانا، من فرنسا، وضـم تكساس وانتزاع كاليفورنيا من المكسيك، وشـراء جاسدن، وضمت هاواى وجزر ساموا، وشراء ألاسكا وجزر الـوشيان من روسيا، واستولـت على جزر هاولاند وبيكر ومـيداوى، وشراء جـزر فرجين من الدانمـارك، واستئجـار بعض الجزر الأخرى. . وهكذا. . وخلال الحرب الأهـلية والانطلاق غربا على حساب السكان الأصليـين من الهنود الحمر، واستئجـار قواعد عديدة فى الأطلسى وداخل شريط الكاريبى. .

والشاهد أن عوامل تأسيس دولة عظمى حديثة العهد بالتاريخ وبمعيار الزمن - أكثـر من مائتى عام. . تـقريبا - لم تخلـق للعسكرية الأمـريكية عمـقا ترتـكز عليـه باستثـناء تجارب الحـروب الأهلية وعـمليـات الضم الإقليـميـة. . وحسابـاتها لا تخـضع إلا لخطط القـوة وأهداف السـيادة والأطمـاع الكوكبـية. . وهـذه العسكـرية المجنحـة والعائـمة فوق المـياه وبقواعدها الـتطويقية وبتوظيف للـتكنولوجيا فى أعلى مراحـلها، تحمل ملامح أقـرب لصورة سينمـائية مبـهرة ومثيـرة، تستعرض فـنون الحرب

الخاطفة أو حرب إبادية رهيبة دون مراعاة للمدنيين.. المهم.. ألا تتلاقى الجيوش وجها لوجه!! أما فى حالات المواجهة المتواصلة فإنها تثبت خواءها، وأمامنا تجارب عجز العسكرية الأمريكية فى فيتنام وكوريا ـ على سبيل المثال ـ وتلقت دروسا قاسية فى سايجون وسنتياجو وبغداد.

وأعتقد أن العسكرية الألمانية تقترب فى كثير من روح القتال والانضباط وجسارة المواجهة والقوة الذاتية الكامنة فى الطاقة البشرية، والثقة بالنفس على أساس أن الرجال هم معجزة القوات المسلحة وسرها، والاستعداد للتضحية.. تقترب بهذه الخصائص والملامح من العسكرية المصرية.. إلا أن تاريخ العسكرية الألمانية حافل بالغرائز التوسعية والنوازع العدوانية تدفعها ديكتاتورية عسكرية سافرة، متحرشة، مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة، مع طغيان الأيديولوجية العنصرية الآرية.. ويرجع ذلك بالطبع إلى تأصيل سياسة الدم والحديد داخل حدود ألمانيا من أجل الوحدة ثم الزحف إلى خارج الحدود من أجل التوسع والانطلاق نحو السيادة.. وخاضت مواجهات ومعارك شرسة وأشد هولا فى محاولة لتحقيق أهداف ومطامع وتدعيم حركة الدور الألمانى!!

....

....

وما سبق مجرد لمسات سريعة، وبهذه اللمسات أريد أن أخلص إلى نتيجة مؤداها أن العسكرية المصرية تمثل أبرز ملامح الدور المصرى ـ المبادئ والثوابت والمواقف وأثر العمق التاريخى ـ ولمن يريد أن يقترب من حقائق الدور المصرى وقدرات الحركة والتأثير..

وأن العسكريـة المصرية كانت على امـتداد سنوات من عمـر التاريخ تجسيدا لهذا الدور وقدراته، فمصر لم تفرض دورها على أحد وبالضرورة فإن العسكرية المصرية لم تكن يوما قوة غزو واحتلال.. وأن نظرية الأمن محددة تاريخيـا بأن تكون مصر فى وضع من القوة يسـمح لها بأن تقرر لنفسـها فى الحاضر والمسـتقبل ما تريد وفـق إرادتها وبغير خـشية من أى تهديد.. والمسألـة قبل أى شىء وبعد أى شىء أن هناك تراثا عـميقا من القيم والمبـادئ يضرب بجذوره فى أعـماق التاريخ وهو فاعـل ومؤثر فى وجدان المصريين وضمائرهم..

□□□

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

مصر.. الدور.. الوظيفة

قبل ستمائة عام تقريبا كتب الشيخ الفقيه محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة؛ في وصف مصر.. "هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، قهرت قاهرتها الأمم، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم، كريمة التربة، ومؤنسة لذوي الغربة، ولها خصوصية النيل التي جل قدرها"

دعونا نضبط عدسات رؤيتنا على منظور سليم وحتى نضمن لكلامنا أكبر قدر من الموضوعية والإنصاف، فإن الحديث عن دور مصر وباستثناء متفرد يختلف تماما عن الحديث وبصفة العمومية عن أى دور لأية دولة، وحركته ونفوذه وتأثيره؛ لأن دور مصر له خصوصية، فهو الدور الركن فى هذا العالم. . دور يلفت الانتباه إلى أهمية البعد التاريخى للدور. . أهمية البعد الجغرافى للدور. . أهمية البعد الحضارى للدور. . وأهمية البعد الإنسانى للدور. . وهكذا يتسع الأفق وتتضح الصورة. . وفى كل هذا كان دور مصر متواصلا فوق جغرافية سياسية حية، ومع سنوات الهبوط والنهوض، وسنوات الضعف والارتقاء.

فمصر ومنذ بدايات عمر التاريخ لم تكن فقط مجرد دولة ترتكز على دور. . أو أنها دولة ترتكز على موقع. . ولكنها كانت محور الارتكاز بين ذراعى الدور والموقع. . وأدركت مصر منذ بدايات ما قبل التاريخ أن لها دورا. . وبالتحديد أن هناك دورا خلقت له أو خلق لها لا فرق. . وأن لهذا الدور موقعا متفردا أو أن لهذا الموقع دورا متفردا ـ لا فرق ـ ولذلك شهدت مصر أول تقنين فى التاريخ الإنسانى للحدود والتخوم ووضع تدابير الأمن لسلامتها فكان لملوك مصر قبل أربعة آلاف عام ثلاث عشرة قلعة لحماية الحدود الجنوبية وقلاع وحصون ومواقع حراسة على الجبهة الشرقية. . وترسيم الحدود فى هذا الزمن ومع بدايات عمر التاريخ كان لتأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها وتنظيم حركة المرور بمراقبة الداخلين والخارجين لدولة تمتعت بالنفوذ السياسى وبالمركز التجارى والثقافى. . وفى كل هذا كان واضحا ترسيم جغرافية الدور المصرى داخليا وخارجيا وفى منظومة واحدة.

وإذا كانت مصر منذ بدايات ما قبل التاريخ قد أدركت أن لها دورا . . وأن هذا الدور هو أقرب من " الأقدار التاريخيـة " التى لا تستطيع معها الخروج عن أحكامها؛ لأن معنى ذلك خروج مصـر عن جغرافية موقعها وعن تاريخـها ـ فإنهـا لم يغب عنها أيـضا أنها تسـتمد تأثيـرها من هذا الدور . . وأن قوتها الأساسية فى هذا الدور الذى يـمنحها قوة تأثير فاعل ونافذ يتجاوز حدودها الجغرافيـة . . وهى بذلك ـ كله ـ تنفرد بخصوصية النموذج البارز للـدول التى تستمد تأثيرها من الدور ـ مـن حركة التاريخ وعبقرية المـكان ـ وطبقا لتصنيف الكاتـب الكبير الأستاذ محـمد حسنين هيكل (كـتاب: السلام المستـحيل والديمقـراطية الغائبـة) فإن هناك دول طبيعة، ودول وظيفة، ودول دور . .

والنوع الأول . . دول تسـتمد تأثيـرها من طبيـعتها . . مـن الثروات الطبيعـية فهى تملك من الأرض والموارد على هذه الأرض، مـا يمكن لها ويعطيـها أساسـا لبناء قوتهـا . . ونموذج هذه الدول: الولايات المتـحدة، الصين، البرازيل، الهند، وكـل واحدة من هذه الدول شبه قارة . . أرض غير محدودة للزراعة، وثروات معـدنية فى باطن الأرض، وإمكانية لبناء قاعدة صناعية متطورة، وبالطبع حجم كاف من البشر . .

والنوع الثانى . . دول تستمد تأثيرها من وظـيفة كلفتها بها المعادلات الدولية والإقليمية . . ونموذج هذه الدول: سـويسرا والنمسا، ولبنان مثلا وحيث يـرتبط تأثيـر لبنان ـ بل وبقـاؤه ـ بتراضى أطراف مـختلفـين فى المجال الدولى وفى المجال الإقليمى مع ضـرورة وظيفته فى وسط المنطقة العربية . . وحين يختل تراضى الأطراف ينفجر الوضع فى لبنان!!

وهناك دول تسـتمد تأثيـرها من دورها . . من التاريـخ . . وإذا كانت

أرضها ومواردها ليست كافية، فإن مسار التاريخ وحركته أعطياها الفرصة لتكون قوة أكبر من مجرد خطوط حدودها. . مسار التاريخ وحركته جعلاها قوة إقليمية مؤثرة فى ما حولها سواء بانتمائها إليه عضويا أو التصاقها به لسبب من الأسباب. . وأن مصر هى النموذج البارز لهذا النوع من الدول - وربما كان الوحيد - الذى يستمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده. . ذلك هو الذى جعل مصر قوة إقليمية بعروبتها، بل أنه فى لحظة من اللحظات - وعلى قاعدة عروبتها - جعل منها قوة عالمية بمكانتها فى بعض حركات العصر الكبرى، كحركة التحرير الوطنى، وحركة عدم الانحياز، وحركة الوحدة الإفريقية وهكذا. .

. . . .

وتبقى الدول التى تستمد تأثيرها من طبيعتها - من ثرواتها الطبيعية وما تملك من موارد - تحت رحمة المتغيرات المناخية وحركة التوازنات الاقتصادية!! وتبقى الدول التى تستمد تأثيرها من "وظيفة" تقوم بها، تحت رحمة المتغيرات الدولية وحركة توازنات القوى!! أما الدول التى تستمد تأثيرها من دورها. . من التاريخ. . فهى وثيقة الصلة بديمومة وديناميكية حركة التاريخ التى لا تتوقف.

إذن مصر وبالدرجة الأولى دور، وهذا الدور له "حلم عربى" يشترك فيه بالانتماء مع شعوب أمته.

وهذه الحقيقة لم تكن غائبة عن وعى القوى الأوروبية التى حاصرت "محمد على" وضيقت عليه الخناق، ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة سنة ١٨٤٠ وهدفها إبعاد مصر نهائيا عن المشرق العربى!!

وهذه الحقـيقة ـ أيضا ـ لـم تكن غائبة عـن مضمون رسـالة البارون "روتشيلد" عـميد البيت المالى اليـهودى العتيد إلى اللـورد "بالمرستون" رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت ـ ١٨٤١ ـ ويـقول فيها: "إن هزيمة محمد على وحـصر نفوذه فى مصر ليست كافـية الآن، هناك قوة جذب متـبادلة بـين العرب، وهـم يدركون أن عودة مـجدهم الـقديم مـرهونة بإمكانيات اتصالهم واتحادهم.. أننا لو نـظرنا إلى خريطة هذه البقعة من الأرض فسوف نجد أن فلـسطين دائما هى الجسر الذى يوصـل بين مصر وبين بقية العـرب فى آسيا، وكانت فلسطين دائمـا هى بوابة من الشرق، والحل الوحـيد هو زرع قوة مخـتلفة علـى هذا الجسر وفى هذه الـبوابة، لتكون هذه القوة بمثابة حاجز يمـنع الخطر العربى ويحول دونه، والهجرة اليهـودية إلى فلسطين تسـتطيع القيام بـهذا الدور، وليست تلـك خدمة لليهود يعودون بها إلى أرض الميعاد مصداقا للعهد القديم فقط.. ولكنها أيضـا خدمة لـلإمبراطوريـة البريطـانية ومـخططاتهـا، فليس مما يـخدم الإمبراطورية أن تتكرر تجـربة محمد على سواء بقيام دولـة قوية فى مصر أو بقيام اتصال بين مصر والعرب الآخرين.."!!

ولكن التجربة تكررت مع الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وغربت شمس الإمبراطورية البريطانية، وبدأ تيار المد القومى جارفا..

وتلك السطور من خطاب روتشيلـد إلى رئيس الوزراء البريطانى فى شهر مارس ١٨٤١ تكشف عن حقيـقة النوايا تجاه دور مصر.. وأن قوى السيطرة الأجنـبية ـ ومعها إسـرائيل بالطبع ـ تدرك تماما أن الأمـة العربية تكتشف قدرها فى مصر.. وأن قدر مـصر أن توجه حركة موازين القوى داخل أمتهـا.. وأنها "المبتدأ" لكل جملـة عربية تعبر عن حـركة الفعل

والموقف.. وأن تعبير "الشقيقة الكبرى" لم يكن يوما مجرد تعبير إنشائى عاطفى رسمته كلمات الأدباء أو رتبت صياغته إبداعات الشعراء، ولكن المعنى والمضمون يشير إلى الدور القيادى وإلى الموقع الذى يتحكم فى الموقف.. وإلى القدرات والإمكانيات والمخزون الحضارى الذى هيأ لمصر أن تمارس دورها وبتفويض تاريخى لقيادة حركة أمتها العربية.. وبمعنى أقرب لكلمات مسئول ليبى - أمين اللجنة الشعبية للثقافة والإعلام "نورى أحمد" - بأن مصر شاءت أم أبت هى صاحبة المركز والدور القيادى لهذه المنطقة..

ولكل هذا وغيره الكثير منذ زمن طويل فإن دور مصر هو المشكلة التى تطرح نفسها دائما أمام قادة إسرائيل وزعماء الصهيونية العالمية.. ومن الطبيعى أن تكون المحاولات - ودائما - لعزل هذا الدور عن محيطه العربى.. محاولات لكى يكون هذا الدور مهزوما من الداخل، أو أن يكون أسيرا لحالة من الإحباط واليأس، أو مصابا بالترهل والضعف؛ لأن أى "دور" بدون قوة يستند إليها وينطلق منها يصبح مجرد "فرقعة أصوات" تثير الشفقة أو السخرية.

وإذا كان دور مصر الذى تدعمه وتدفع به القوة والإمكانيات والطموحات قد أثار هواجس وقلق ثيران كثيرة هائجة، وعلى امتداد التاريخ - فأسرعت تدير لعبة التآمر للحجر على الطموحات والتطلعات، وحجز "الدور" متهالكا وراء الحدود المصرية.. فإن الوضع يختلف كثيرا بالنسبة لإسرائيل لأن ظروف وأسباب وأهداف "تأسيسها" تفرض عليها أن تكون قوة الردع والتحجيم فى مواجهة أية قوة عربية تلتقى معها على الخطوط المباشرة لجبهة الصراع.. وأن أى دور لا يمكن أن يكون لديه

الحق فى تعديـل ميزان القوى، أو أن يناوئ وينـاور، أو أن يتقدم لإدارة الأحداث داخل الساحة العربية . .

. . . .

. . . .

وبأحكـام وضرورات التاريـخ والجغرافـيا ـ معـا ـ فإن الدور القـائد والرئيـسى على المسـرح العربى هـو الدور المصرى . . إذن كـان لابد من تفريـغ هذا الدور من قوته، وسـحب هذه القوة إلى "المصـيدة" . . وأن يكون "الفـخ" ضربة إجهـاض موجهـة إن لم تكن مـدمرة لهذه الـقوة وعناصرها . . وهكذا كانت المواجهة الأولى بعد سنوات قلائل من تدشين الكيان الإسرائيلى ـ ١٨ عاما تقريبا ـ وكانت ملامح الصورة لمصر وقتئذ ـ مع منتصـف الستينات ـ توحى ببـشارات حقائق القوة، وكـان دور مصر يشمل ساحة عربية ممتدة من المحيط إلى الخليج بمشاعر الانتماء والتضامن مع تصاعـد المد القومى العربى وطمـوحات لا حدود لها تسكـن ضمائر الشعوب العربية بأحـلام الوحدة وتحرير إرادة وأراضى الأمة . . وفى ذلك الوقت كانت قوة مصر تعنى النهوض بمستويات التنمية وعلى نحو استحق تقدير العالـم لتجربة التنمية المـصرية والتى اعتبرها البـنك الدولى نموذجا فريدا لخطة تنمية لم تعتمد على أية مـساعدات خارجية وحققت نسبة نمو متوسـطها ٦,٧٪ خلال الفتـرة من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٧ وشهدت هذه الـفترة أيضا انطلاقة جديدة لقاعدة الصناعات الحـربية المصرية واهتماما بالتعاون مع الدول الصديقة فى مجالات الذرة وإنتاج الطائرات واستطاعت العقول المصريـة أن تحقق تقـدما فى مجـال الصواريخ وصنـع المحركات النـفاثة ويشهد بذلك عدد كبير من أساتذة كليات الهندسة بجامعتى القاهرة وعين

شمس والذين شاركوا فى هذه الملحمة لبناء قوة مصر العسكرية.

وبدأت إسرائيل فى إعـداد خطوط استراتيجيـتها العامة والتى تـعتمد على محورين مـتوازيين يمثلان الأساس وأهداف التحـرك ـ وهما حسب تعبير الأستاذ هيكل.

١ ـ سوريا هى عنصر الإثارة الذى يمكن استغلاله.

٢ ـ ومصر هى مركز الثقل الذى يتحتم ضربه.

أى إشعال الموقف على الجبهة السورية وبما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجـدة سوريا.. وهكذا بدأت أجواء مناخ ملتـهب فى المنطقة تنذر باشتعال النيران.. وبدأ منتصف عام ١٩٦٦ يدفع أمامه بالتوتر على الخطوط الإسـرائيليـة مع سوريـا، وسحبـت الشهـور التاليـة ـ معـها ـ مناوشـات متقطعـة.. ثم بدأت الرياح الساخـنة تهب مع تصاعـد حدة التهديدات والـتصريحات ومنها كـلمات "ليفى أشكول" أمام الـكنيست الإسرائيلى "أن إسرائـيل قررت أن ترد بالطريقة التى تراهـا ملائمة على سوريـا وأن الطريق إلى دمـشق مفتـوح".. ثم تداعت مـشاهد القـصة المعروفـة وإلى الفصل الأخيـر منها الذى يتـضمن هزيمة ١٩٦٧ وتـدمير آليات القدرة العـسكرية وتدمير وتهجير المدن المصـرية على خط القناة.. وأصاب الدوار المفاجئ كـل شيء، وكانت الضربة موجعـة مؤثرة ونافذة بالنسبة لخطط وطموحات التنمية.. وأصبح التركيز منصبا على إعادة بناء القوات المسلحة وكانت الأعباء متضاعفة وشاقة..

وتصـورات إسرائيل ومـن معهـا من كلاب الـصيد ـ أنـها حقـقت الهـدف.. وأن قوة مصـر انتهت وأن الـدور المصرى انسـحب مهـزوما

مخذولا منكسرا ـ أو على أقل تقدير ـ أن الدور وعناصر القوة قد تم حشرهما فى دائرة التجميد والتأجيل إلى زمن غير منظور.. وحتى حقق الجيش المصرى بمعجزة الصمود والتخطيط والتنفيذ ـ انتصار إرادة الدور المصرى.. انتصار "القوة" المصرية والعبور بالأمة العربية من حال إلى حال، من "وجيعة النكسة والهزيمة" إلى "نشوة" الانتصار باسترداد الكرامة، والتأكيد عل أن فكرة المستقبل العربى لم تهزم.

....

والشاهد.. أن القوى الدولية الطامعة وعلى رأسها القوة الغالبة الأولى فى العالم.. ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ كانت ترى أهمية تحويل دور مصر إلى مجرد وظيفة تكلف بها!! وأتصور أنه أمر طبيعى ومنطقى جدا أن تمارس أمريكا ضغوطها السياسية والاقتصادية والإعلامية فى محاولة لحصار دور مصر داخل حدود الوظيفة المكلف بها وعند الضرورة وفقا للمصالح الأمريكية!! وهناك فارق كبير بالطبع بين الدور والوظيفة.. فالدور يجسد حركة وقوة غير محدودة وغير محددة، وفعل مؤثر فى منطقة شاسعة تتعدى حدود الدولة.. أما الوظيفة فهى مجرد مهمة مؤقتة سياسية أو دبلوماسية تخضع لحسابات معروفة يمكن تقديرها.. وإذا كانت الولايات المتحدة لا تقنع بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب، فكيف يكون هناك دور فاعل ومؤثر لدولة أخرى فى محيط العالم الثالث.. وهى تدرك تماما وتعرف معرفة يقين لا معرفة ظن واجتهاد أن هذه الدولة "مصر" ومنذ البداية كانت القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك المحيط السكانى من نصف الكرة الجنوبى.. والولايات المتحدة تسعى لفرض تصور جديد بأن يكون الدور

فى حالة غيـاب وأن تكون الوظيفة فى حالة حضـور عند الطلب!! وهى أيضا لا تسمح أو لا تقبل بوجـود قوة أوسع من حدود دولة، والمسموح به فى هذا النطاق فقط هو التعامـل مع دولة لها حدود وإمكانيات يمكن حسابها وتقديرها وتوظيفها عند الضرورة..

وفى مطـلع السبـعينيـات كان "هنرى كـيسنجـر" - وزير الخارجـية الأمريكى الأسبـق - واحدا من الذين رأوا هذه القضيـة بوضوح وعمق، وساعدته الظروف على النفاذ إلى تحقيق هدف عجز غيره عن تحقيقه وهو عزل مـصر عن الحـركة التـاريخيـة لدورها وعن القـوة الكامنـة فى هذا الدور، ولأنه أدرك إذا ظلـت مصر قوة أوسـع من حدود دولة وتجسـيدا لتيار القـومية العربية والحركة التـاريخية لهذا التيار فـإن الولايات المتحدة ستكون فى حاجة إلى مصـر لحل أزمة الشرق الأوسط.. وإذا استطاع أن يحول مصر إلى حدود وتعداد سكان ومجرد قوة ظاهرة بإمكانيات يمكن حسابها فـإن مصر هى التى ستكون فى حاجة إلـى الولايات المتحدة لحل أزمة الشرق الأوسط.. وعند مـنتصف السبعينيات وحولـها كانت النوايا واضحة بإبقاء مصر ضعيفة.. إبقاء مصر معزولة عن بقية العالم العربى، لا تشعر حتى مجرد شعور أولى أنها جزء من كل!!

والحال هكذا.. فـإن دور مصر أصبح مثـيرا جدا للثيران الأمـريكية الهائجة.. وإن كـانت الولايات المتحدة بالفعل فـى حاجة إلى هذا الدور ولكن ليس بمـفهوم دور يرتكز إلى دور.. أو دورا يسـاند دورا.. ولكن بمفهـوم الدور والوظيفـة وفى إطار التكليـف.. فالولايات المتحـدة التى تتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة تتصور أن نفوذ دورها هو الغالب وبعد أن تحولت عناصر القوة فى يدها إلى أعـلى مراحل غرور القوة حتى تكاد

تتوهم أن رسالة دورها حق إلهى مقدس، ويبدو أنها لا تقنع بغير هذا مع السماح فقط لدور الظل للقوى الكبرى الأخرى بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، أو حتى مجموع قوى الاتحاد الأوروبى.. أما فى العالم الثالث فإن أى دور متوقع أو مسموح به فهو مجرد "وظيفة" تحدد مهامها وأعبائها وحساباتها الولايات المتحدة نفسها وبما تتطلب المصالح الأمريكية وحركة الدور الأمريكى!! فهم يعتقدون مثلا أن دور مصر فى أزمة الخليج الثانية ١٩٩٠ كان مجرد وظيفة مدفوعة الثمن فى صورة إسقاط نصف الديون المستحقة على مصر!! فقد كانت الولايات المتحدة تريد ضمان وجود قبول عربى وصمت عربى على الأقل يسهل تواجد دور قوات التحالف الدولية فى المنطقة العربية لتحرير الكويت وردع العراق، ثم بالضرورة وجود قبول واسع لأى اتفاق يتم التوصل إليه لتأديب العراق تحت رعاية التواجد الأمنى الغربى بقيادة الولايات المتحدة!!

وكانت هذه هى الخطوط التى سارت عليها أفكارهم وتحليلاتهم وتقديراتهم - فيما بعد - بالنسبة لحقيقة الدور المصرى.

وعلى هذا الأساس راحوا يستعرضون عضلاتهم قبل أفكارهم.. ولقد خطر لهم أن مصر فى النهاية مجرد دولة لها حدود وإمكانات يمكن حسابها جيدا، وهى قبل كل هذا دولة مستقبلة وباحثة عن المعونات والمساعدات الأمريكية وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق، وبالضرورة فهى دولة تسبح فى نطاق التبعية، وأنه لمنطقى جدا أن تقوم بمهام "الوظيفة" إذا احتاج "دور" الدولة العظمى ذلك وبمنطق التكليف لا بمفهوم المساندة أو الدور الموازى.. ولا يسمح - مطلقا بالخروج عن النص - وعلى سبيل المثال كانت الحملة الإعلامية الأمريكية - فى الشهور

الأخيرة من الولاية الأخيرة للرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون ـ والتى قادها الكاتب فريدمان المقرب للإدارة الأمريكية وجماعات الضغط اليهودية وباعتبار أن مصر قد تجاوزت كل الحدود حين تجاهلت القيام بوظيفة تمهيد الأجواء والأراضى العربية للضغوط الأمريكية على المفاوض الفلسطينى ليقبل عروض ومقترحات قمة كامب ديفيد الثانية والتى كانت على وشك النجاح لولا انفلات الفعل السياسى المصرى بعيدا عن الرؤية الأمريكية!! وأن مصر لم تقدم المقابل للمساعدات والمعونات الأمريكية!! وأتصور أن لهذه الرؤية الأمريكية عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة.. وهى إجمالا تدور حول التكليف بمهام الوظيفة عند الضرورة، فهم يتوقعون من مصر مثلا التحرك من أجل توفير دعم عربى إسلامى لأى اتفاق يتوصل إليه الفلسطينيون مع الجانب الإسرائيلى وبرعاية أمريكية.. وهذا هو المتاح والمسموح به.. وبمعنى أن تتخلى مصر عن دورها وعن الحركة التاريخية التى تجسدت فيها، وأن ترهن مواقفها بالرضاء الأمريكى!! وأن على مصر أن تتجاهل حقائق استراتيجية ضخمة ـ دورها.. ومسئولية هذا الدور ـ فى سبيل الفوز فى ألعاب تكتيكية لا قيمة لها!!

....

....

والرؤية الشاملة والموضوعية لأصول وجذور القضية على مسار العلاقات المصرية الأمريكية حددها الدكتور جمال حمدان من زاوية "أن مصير الصراع العربى الإسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة بين العرب..وأن مصير عدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف فى

التحليل الأخير على مصير مصر . . وأن مصير الإمبريالية العالمية سيتوقف على مصير إسرائيل . . ويترتب على هذا أيضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب : الولايات المتحدة ومصر، ولا غرابة فى هذا فكل منهما يلخص زعامة مجموعته، إلى جانب أنه يفسر تركيز العدوانية الأمريكية على مصر بالذات . . وهذا العداء إذ يقوم بين أقدم دولة هامة فى التاريخ وبين أحدث دولة هامة فى التاريخ . . قد فرضته أمريكا فرضا غير مفهوم وغير عادل " . .

وماذا بقى ليقال بعد ذلك التوصيف الدقيق؟!

المهم : أن دور مصر سيظل مثيرا لحساسية السياسة الأمريكية طالما تعدى من وجهة نظرهم حدود الوظيفة . . وإن الصداقة والمصالح المشتركة لا تعنى أن يكون هناك دور يجابه ويوازى أو حتى يساند دور الإمبراطورية العظمى، ولكن هناك وظيفة يمكن القيام بمهامها وفقا للرؤية والمصلحة الأمريكية . . وتلك هى القضية التى تخلق أحيانا أزمات مكتومة وأحيانا أخرى كثيرة حملات إعلامية سافرة!!

وهناك ـ لكى لا نخطئ ـ ظروف كثيرة وتحت ضغوط خارجية، وفى ظل حالة من السيولة الفكرية، و" المثالية " السياسية، أو بمعنى إدعاء الحكمة ـ وهو كما يقولون إدعاء تضيق به الصدور ـ وهناك أسباب أخرى خارجية وداخلية، أصبحنا معها نتجاهل دورنا، ومفهوم وقدرات وحدود الدور وتأثيره، والحركة التاريخية له . . وإلى تلك الدرجة التى جعلتنا ـ عل سبيل المثال ـ نفتح أبواب الحوار والمناقشة فى مطلع عام ٢٠٠٠ مع الكاتب الأمريكى اليهودى "توماس فريدماى" المقرب من الإدارة الأمريكية الجمهورية ـ وهو يطرح رؤيته حول المطلوب من مصر فى

مرحلة ما بعد السلام، وحتى لا تصبح مصر "تايوان" أخرى!! ودخل كثيرون ممن يحملون لقب النخبة من المفكرين والمثقفين المصريين فى جدل عقيم مع "فريدمان" حول دور مصر، والإفتاء بالتصورات والتوقعات.. وهذا فى حد ذاته فعل مؤسف!! وقد سبقت "أوهام" الكاتب الأمريكى فريدمان، تصورات "شيمعون بيريز" رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتئذ، ورئيس الدولة العبرية حاليا - بأن المستقبل لدور إسرائيل فى المنطقة، وهو دور - كما يزعم - يرتبط بحقائق القدرات والإمكانيات، وبصورة " جزيرة غنية ديمقراطية " وسط محيط فقير عشوائى.. وإلى هذه الدرجة بلغت أوهام "بيريز"!!

....

....

وبهذا النوع من الأفكار يتحدثون عن دور مصر!؟

وأحيانا أعذرهم.. فليسوا وحدهم الذين لا يعرفون ما هو سر هذا الدور؟ وأن حسابات وحقائق وعلاقات وموازين الدور المصرى أعقد بكثير من مجرد معادلات وتصورات يطرحونها برغبة ملهوفة لإخضاع الدور لشروط ومتطلبات المنافسة كما يتصورون.. ولشعارات جديدة تمارس نشاطها بالتشكيك فى هذا الدور القيادى!! وهى فى الجملة وجهات نظر يتم تسويقها فى "مناسبات" شبه موسمية أحيانا، ووفقا لما يجرى على الساحة السياسية من أحداث ووقائع.. ولذلك فهى رؤية ذات طبيعة خاصة تكشف أفكار ومواقف أصحابها.. سواء كان "توماس فريدمان" المبشر بطوفان العولمة وسيولها الجارفة وملامحها الأمريكية الكاسحة التى تفرض على مصر الاستجابة لحركتها وإلا تحولت إلى "تايوان" جديدة كجزيرة منعزلة محاصرة بلا دور!! أو "بيريز" المنظر

لكيان الشرق أوسطيــة والدور الاقتصادى الفاعل للتعــاون الإقليمى تقوده جزيرة غنية نظيفة وسط محيط فـقير وقذر.. متصورا أن الدور فى مجال القوة والقدرة هو لإسرائيل، وأن دور مصر فى المرحلة القادمة سوف يفقد مهــامه ووظيــفته فــى محيط آلــيات الســوق العالمى وســلطان الاقتــصاد وبالضرورة فــإن أى دور لا يؤدى وظيفتــه ينكمش ويضمــر وذلك قانون البقاء ذاته!؟!

هذه بعض التصورات وعلى قائمة حسابات الوهم!!

وهى تصورات بالوهم وبسوء النوايا.. تخلط بين الدور، وبين مهام "الوظيفة".. وتبنــى أحكامها على "الدور" فى لحظة تاريخيــة بعينها أو مع مرحلة وحقبة زمنية محددة!! ولــكن دور مصر - يبقى - ومهما كانت تأثيرات وانطــباعات حقبة زمنــية معينة تعــيشها، (وعلى سبــيل المثال فى الزمن المــصرى المعاصــر استمــرت هذه الحقــبة أكثــر من ٣٥ عامــا ومنذ السنوات الأخــيرة لحكم الرئيــس السادات وطوال ثلاثة عــقود فيمــا بعد خلال حكم الرئيس المخلوع محمد حســنى مبارك).. ومهما كان حجم الضغوط الخارجية أو الاستسلام لها، ومهما كانت قوة العواصف والرياح التى تهب بمتغيــرات ومستجدات طارئة، أو مهما كــانت درجة تفاعلات واحتكاكات حــركة موازين القوى فى العــالم.. تبقى مصر - كــما يقول العــالم الجليل الراحــل الدكتور جــمال حــمدان - أقدم وأعــرق دولة فى الجغرافيا السياسية فى العالم، وهى غــير قابلة للقسمة على اثنين أو أكثر مهما كانت قوة الضغط والحــرارة.. ومصر هى "قدس أقداس" السياسة العالمية والجغرافيــا السياسية كما أن مصر السياسيــة هى من خلق الجغرافيا الطبيعية فهى نبت طبيعى بحت.

□□□

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

القيادة.. والدور
خصائص العلاقة بين الدور والزعيم

أنــــا إن قــــدر الإلــــه ممــــاتـى
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
مــا رمــانــى رام وراح ســلــيـمـا
من قديم عناية الله جندى
كــم بغت دولــة عليــا وجــارت
ثم زالت وتلك عقب التعدى

شاعر النيل حافظ إبراهيم

إذا كان التاريخ هو الذى يملى على دولة ما "دورها" . . فإن مصر - أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر - ومن منظور تاريخى وجغرافى هى بالدرجة الأولى "دور" . . وبمعنى أننا نؤثر فى التاريخ كما يؤثر فينا . . وإذا كان للتاريخ دور فى تكوين البنية الثقافية للشعوب، والأنماط والأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية . . وإذا كان للتاريخ دور فى تشكيل الملامح الثقافية والوجدانية للشخصية القومية للإنسان المصرى . . فإن موجات التحديات الجبارة التى واجهت الأمة المصرية فى كل عصورها الحضارية المتعاقبة وحتى العصر الحديث تكشف عن حقيقة تأثر حركة الدور بالحاكم المصرى، صاحب السلطات المطلقة، والتى كانت تمثيلا أو تفويضا من الآلهة فى مصر الفرعونية، وقد كان الفرعون مطبوع بطابع دينى، فقد استطاع الكهنة أن يصبغوا الملك بصباغة دينية قوية، حينما صوروا للرعية أن أصل نبت الأسرة الفرعونية الحاكمة، هى غرس بذرته الأسرة الإلهية التى حكمت العالم أولا، ثم انبثقت منه تدريجيا الأسرة الملكية!! وفى العصر الحديث كانت سلطات الحاكم مطلقة - أيضا - ولا حدود لها، بداية من أول دستور وضع فى مصر سنة ١٨٧٦ ثم دستور ١٨٨٢ ودستور ١٩٢٣ ثم دستور ١٩٣٠ الذى ألغى بالأمر الملكى وأعيد العمل بالدستور ١٩٢٣، ثم دستور ١٩٥٦، ودستور ١٩٦٤، وقد وصلت السلطات الكثيرة إلى الذروة فى دستور ١٩٧١ فالحاكم المصرى يتحكم فعليا فى كل سلطات الدولة، يفعل ما يشاء، ولا يملك أحد أن يسأله عما يفعل!! ومثلا - وفى هذا السياق للحاكم الذى يفعل ما يريد - كان للرئيس المصرى السابق محمد حسنى مبارك، سياسته الخاصة، والتى لم تكن انعكاسا لإجماع الشعب، أو التعبير عن رأى الشعب، كما يقول السيد عمرو موسى، وزير خارجية مصر لعشر سنوات، طوال عقد

التسعينيات!! وبالضرورة فإن حركة الدور المصرى، بين الصعود والإنكماش، أو بين سنوات الرخاء والنهضة والريادة المصرية، وسنوات الاضمحلال والانكفاء داخليا.. تأثر بوجود قيادات من حجم عادى وكفاءة عادية، أو زعماء وقادة على وعى بالحقائق التاريخية، وبأحكام وضرورات دور مصر، وكفاءة استيعاب آمال الأمة فى لحظة تاريخية معينة.. قيادة لديها رؤية ومقدرة على الاتصال بحقائق التاريخ وأحكام الجغرافية.. وفى كل الظروف الطارئة والجارحة كان "الدور" هو الذى يصنع "الرجال".. يدفع أمامه بالقيادة، ليتولى مهمة التصدى للتحديات الجبارة، ويعيد تصحيح مسار التاريخ.. حدث هذا على امتداد التاريخ المصرى.. وفى مصر الفرعونية وثق الأحداث والوقائع الدكتور ناصر الأنصارى فى (موسوعة حكام مصر):

مثلا.. فى عصر الاضمحلال الأول (حوالى ٢١٨٠ ـ ٢٠٦٠ ق.م) حين سادت الفوضى، وعم الاضطراب وانحدر الفن.. تمكن أمراء طيبة أن يوحدوا البلاد ثانية وينهضوا بها، لتبدأ مرحلة جديدة باهتمام الملوك بالسياسة الخارجية، وسيطروا على النوبة السفلى، ونفذوا مشروعات ضخمة.

وفى عصر الاضمحلال الثانى (حوالى ١٧١٠ ـ ١٥٦٠ ق.م) حين وقعت مصر تحت احتلال الهكسوس ١٥٠ سنة وقد ساعد وجود الهكسوس على أن يجعل من الشعب المصرى للمرة الأولى فى تاريخه شعبا محاربا منتصرا فى سبيل الحرية بقيادة أمراء مدينة طيبة "سقنن رع" وابنيه "كامس" ثم "أحمس".. وحطموا كل ما يمت للهكسوس بصلة حتى يتم محو ذكراهم من النفوس، ولا يبقى لهم ذكر.. وبعد حرب

التحـرير دخلت مصر فى طـور حربى عظيم، وتم وضع حـجر الأساس لإمبراطورية كبرى امتدت من سوريا وأعالى الفرات إلى الشلال الرابع فى السودان. . وأقيمت المعابد الهائلة مثل الكرنك والأقصر، وعاشت البلاد فى أزهى مظاهر الرفاهية والفن والعلوم والتجارة.

وإذا كان فرعون مصر "أحمس" - ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق.م - قد تصدر المجموع فى مواجهـة تحديات عسكرية، وأعطى لأمته يقينا مـتجددا بأنها قادرة علـى تصحيح الأوضـاع وتحرير البـلاد من الهكسوس، وأن يـنجز بهذه الحركة مهاما كبيرة على أرض مصر وحولها. . فإن الصورة الأخرى للقيـادة التى ارتبطت بدور مـصر تتجسد فـى "تحتمس الثالـث" ويجمع المؤرخون على أنه أول قـائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقـسيم الجيش إلى قلب وجـناحين، وكان لديـه مجلس أركان حـرب يتشاور مـعه فى وضع الخطط الحربية، وفى عهده سادت مـصر وحضارتها فى إمبراطورية شاسعـة الأرجاء، وعم الثراء والرخاء الـبلاد. . وكان يتمتـع إلى جانب عبقريـته العسكرية بشخـصية قوية تتمـيز بالنبل الرفيع والعـدالة والتدين والصـدق، وكانت سيـاسته الـداخلية تـقوم على إقـرار النظام ورفاهـية الشعب. .

وفى عصر الاضمحلال الثالث (من ١٠٨٥ إلى ٣٣٢ ق.م) انفصلت عن الإمبراطورية المصـرية معسكراتها فى الشمال والجنـوب، وطمع فيها جيـرانهـا الليـبيـون، وملوك النـوبة، وطمع فـيهـا الفـرس. . وراحت محاولات الـسيطرة على مـصر تتعثـر، وكانت روح الاستقـلال الوطنى يقظى وتـدفع إلى المقدمـة بقيادات تسـتوعب حلم الأمـة وتحرك هممـها وتجسد إرادتها: "بسماتيك الأول" وقد تمكن من طرد ملوك النوبة وامتاز

عصره بحركة إحياء التقاليد الفنية للدولة القديمة وتشجيع التبادل التجارى مع الإغريق بعد أن استعان فى حربه بفرقتين إغريقيتين. . و"أميرتى" وكافح ست سنوات حتى تمكن من انتزاع السلطة من الفرس الذين حكموا مصر ١٢٤ عاما. . وظل حكام مصر فى حروب دائمة مع الفرس. . وقاد "نقطانب الأول" حركة الثورة الشعبية وحرر مصر من حكم الفرس. . ولكن لم ينته الصراع على دور مصر. .

وحين نتحدث عن دور القائد أو الزعيم (الحقيقة المحدودة) فإننا فى الواقع نتحدث عن دور مصر (الحقيقة الأكبر) عن أساس الحركة التاريخية كلها التى تتجاوز كل القيادات والأفراد الذين تصدروا المقدمة بإرادة صلبة وقدرة على الحشد وفى وقت أزمة أو محنة عارضة. . ولكنهم بالضرورة لم يصنعوا دور مصر، وإنما كان دورهم فى حماية هذا "الدور" وحركته التاريخية، واتساع حدوده، وفرض نفوذه وتأثيره، وأن تظل روح مصر يقظى فى كافة المجالات السياسية الاقتصادية الاجتماعية. .

حسابات دور مصر أكبر وأعقد من ذلك. . وهذا لا يقلل من قيمة دور القائد أو الزعيم التاريخى حتى لو كان المرجع الذى يستند إليه هو دور مصر.

. . . .

. . . .

والشاهد. . أنه على مدى أكثر من خمسة آلاف عام، وجدت مصر بحدودها الجغرافية المعروفة تقريبا، وعليها شعبها، وكانت لها حكومتها دون انقطاع فى أى حقب تاريخها، ومما اقتضى خلق حقائق جديدة تتسق

مع التاريخ. . وأن التفاعلات التاريخية والحضارية جعلت شعب مصر واحدا من شعوب أمة كبيرة يربطها نفس المستقبل ويجمعها نفس المصير. . وهذا هو سر انتصار مصر، وسر هزيمة أعداء لها كانوا أقوى منها. .

وحين اجتاحت جيوش "الفرس" مصر للمرة الثانية فى نهاية حقبة آخر فرعون مصرى "نقطانب الثانى" ٣٥٩ ـ ٣٤١ ق.م وأنهت حكمه. . كان التنازع على السيادة بين الإغريق والفرس يدور حول قواعد الدور المصرى ـ الموقع والثروة ـ وكان الإغريق يجتهدون فى الانتقام من عدوهم التقليدى، وكل منهم له عقيدة اجتماعية تتصادم مع عقيدة الآخر، وهذه العقائد مسلحة وتدفع بالجيوش أمامها. . ولم تكن المواجهة بعيدة عن موقع مصر حين دخل الأسكندر ٣٣٢ ق.م، وأسس مدينة الأسكندرية، وأمر بأن تتخذ عاصمة لمصر. . وبرؤية القائد الإغريقى الشاب أن تكون الأسكندرية مقدمة الدولة التى لها دور، فى مواجهة المدن اليونانية على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط. . وكان على وعى فى زمن ما قبل التاريخ أن قوة مصر الأساسية فى دورها. . ويقول المؤرخون: أنه كان مغرما بالبحث عن سر "روح مصر" حتى لو كانت فى قبضة الآخرين!! وكان الأباطرة الرومان ـ أيضا ـ بعد حكم البطالمة، على وعى بحقيقة أن مصر تتمتع بموقع جغرافى هام وبثروة طائلة خاصة بالنسبة لروما التى كانت تعيش على قمح مصر. . لذلك وضعوا لمصر نظاما خاصا متميزا عن الولايات الأخرى، فكانت تتبع الإمبراطور مباشرة، وكان حاكمها ذو مرتبة أرفع من باقى حكام الولايات. .

كانت قوة مصر الأساسية فى الموقع. . فى دورها. . وما يمكن أن

تقدمه لمن يتولاها كقاعدة عسكرية اقتصادية كبرى..

والدور ليس ماديا ملموسا، وليس مرئيا، ولكن حساباته هائلة.

وكان سر "روح مصر" الغالب، أن كل من وفد إليها طوال تلك السنوات من عمر التاريخ، لا يستطيع أن يغترب فى مصر، بل يصبح جزءا منها بالواقع، حتى وإذا لم يكن جزءا منها بالطبيعة.. وكان الزمن نفسه يسمح لمصر بما لم يعد يسمح به لغيرها، وهى تحت حكم الآخرين نحو ٩٧١ عاما..وحين قضى الشعب المصرى قرابة ٣٠٠ عام تحت حكم البطالمة و٣٥٣ عاما تحت حكم الرومان، واستمر العصر البيزنطى نحو ٣١٨ عاما.. وحتى حين تحولت مصر من إحدى ولايات إمبراطورية بيزنطة إلى إحدى ولايات الدولة العربية الإسلامية.. ثم حين كان حكام مصر يتمتعون فيها بشبه استقلالية عن دولة الخلافة الإسلامية، مثل العصر الطولونى، والعصر الإخشيدى، والعصر الأيوبى.. أو تلك الأوقات التى كانت فيها مصر دار خلافه مثل العصر الفاطمى، أو العصر المملوكى عندما تمت استضافة الخلافة العباسية فى القاهرة بعد انهيارها تماما فى بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ووصل إلى القاهرة بدعوة من ركن الدين بيبرس أول خليفة عباسى يؤسس حكمه فى القاهرة "أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر العباسى" وكانت للخلافة العباسية فى مصر دور مظهرى ولم يكن يتدخل فى تصريف شئون البلاد، وأصبح كل عمله إسباغ السلطة الدينية على سلاطين المماليك لتوطيد دعائم ملكهم!!

....

ورغم الأوضاع القلقة التى كانت تواجهها مصر، وتحدث هزات

وخلخـلات عند قـوائم المجتـمع . . لم يـغب عن مماليـك مصـر الوعى الاستراتيجى بدور مصر، أو بـأحكام الموقع والتراث الحضارى، وأن هذا " الدور " له حلم عـربى يشترك فيه بالانـتماء مع شعوب الأمة الـعربية الإسلامية . . وبرز دور الـفرد التاريخى من بينهم حـين أبلى "قطز" بلاء حسنا لصد موجـات التتار عن الأمة، وانتصر عليـهم . . وكان "بيبرس" من أعظم سلاطيـن المماليك إذ اجتمعـت فيه صفات العدل والـفروسية، وأقام النظم والقـواعد التى أدت إلى تقوية أسس "مـوقع" مصر . . وإذا كان "الأشـرف بن قلاوون" قـد اهتم "بالمـوضع" وعنى بشـئون مـصر الداخليـة وتسهـيل سبل التـجارة الداخليـة، وإعداد جيش قـوى . . فإن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان أكثر اهتماما "بالموقع" وبالأحلام الواسعة بعـد أن فتح أخيه "الأشرف خليل" عكا، وحـرر صور وصيدا وبيـروت وطرطوس من أيدى الصـليبيـين، وبسط نفـوذه وسيادتـه على الأقطار المجـاورة حتى وصل إلى مـكة والمدينة، وأقـيمت له الخطـبة فى مصر وسوريا وطرابلس الغرب . .

. . . .

. . . .

وفى كل الأحـوال كان المناخ العام لـلدور - دور مصر - يمـهد لدور الرجال . .

وكانت مصر فى كل هذه المراحل من تاريخـها مهيأة لدور الزعيم أو القائد أو الرجل الذى يستوعب آمال أمتـه فى لحظة تاريخية معينة . . دور من يستجيب لداعى التاريخ . . وبكل مزاياه وبكل نواقصه . .

وهذا ما حدث - مثلا - مع "محمد على باشا" فى لحظة تاريخية صاحبت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر بعد بدايتها بثلاثة أعوام وشهرين، وحين تنازعت السلطة فى مصر آنذاك - كما يقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى - ثلاث قوى مختلفة المصالح: تركيا والتى فتحت مصر بحد السيف قبل ثلاثة قرون، فأرادت أن تبقى مصر كإحدى ولايات السلطنة العثمانية. . ثم إنجلترا والتى كانت تطمع فى احتلال المواقع الهامة على شواطئ مصر فى البحرين المتوسط والأحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار، وتأمين طريقها إلى الهند. . والقوة الثالثة "المماليك" والذين سبق لهم حكم مصر قبل الفتح العثمانى، وكانت لهم قوة لا يستهان بها إبان الحكم العثمانى نفسه. .

والقوى الثلاث تجاهلت - فى تنازعها على السلطة - العامل القومى، ولم تحسب حسابه، لكن رجلا واحدا أدرك مدى تأثير هذا العامل لمن يستعين به. . وهو "محمد على" قائد الكتيبة الألبانية فى الجيش التركى فى مصر. . فتقرب إلى القوى الوطنية الشعبية، وفى ١٧ مايو ١٨٠٥م وصل محمد على بفضل إرادة القوى الشعبية فى مصر إلى منصب الوالى، ولم يجد الباب العالى - فى تركيا - أمامه إلا إصدار فرمانا بذلك. .

وربما كانت مصادفة تاريخية أن يأتى الرجل إلى السلطة بقرار شعبى. . لا بالوراثة، ولا بالانقلاب. . ولكن بتفويض شعبى من ممثلى القوى الوطنية الشعبية فى مصر. . وهو مدرك تماما فى هذه اللحظة التاريخية بأحكام الجغرافية والتاريخ وعقيدة مصر الاستراتيجية، وأن مسار التاريخ وحركته أعطيا هذا الوطن الفرصة ليكون قوة أكبر من مجرد

خطوط حدوده.. وأن دور مصر يستمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده.. وأن دور مصر يخلق منها قوة عالمية بمكانتها كقوة إقليمية مؤثرة في ما حولها.. وأعتقد أنه كان مؤمنا بأن دور مصر.. قدر تاريخي.. وأن الأقدار التاريخية تحتاج إلى رجل تاريخي.. فبدأ تدشين نهضة مصر الحديثة وإعادة بناء قوتها الذاتية عسكريا وعلميا، وتنظيم الإدارة والأمن، وتأسيس أكبر حركة إصلاح اقتصادى، وتنوير ثقافى.. ثم اتجه مع أحلام الدولة العربية الكبرى إلى خارج حدود مصر، وأرسل جيشه إلى الحجاز فاستولى عليها، ثم استولى على النوبة جنوبا، وعلى جزيرة كريت، ثم فلسطين والشام، وعبر جبال طوروس، وكانت أحلامه تستند إلى حقيقة أن مصر هى القوة المحلية الوحيدة القادرة على تحدى المطامع المرسومة للمنطقة بعد تحلل الدولة العثمانية..

وبرز دور مصر فوق قاعدة تأسيس لدولة حديثة قوية، ومع التفوق العسكرى.. ولكن هذه الانتصارات خارج حدود مصر، وملامح النهضة الحديثة داخل حدودها، جعل القوى الدولية الطامعة تتحسب للخطر القادم.. وحاصرت محمد على وضيقت عليه الخناق، ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة ١٨٤٠ وهدفها إبعاد مصر عن المشرق العربى، وتحجيم دورها، بأن تكون مصر جزءا من الدولة العثمانية، وأن تدفع الجزية سنويا للسلطان، وألا يزيد جيشها عن ثمانية عشر ألفا، وألا تبنى سفنا حربيا!!

....

وحين اختل التوازن الاجتماعى فى مصر، وتصدع البنيان الاجتماعى والاقتصادى فى ظل أجواء من الفساد السياسى.. وحاصرت الشعب

المصرى ثـلاثية الفقـر والجهل والمرض، ومع نـهب حقوق "الحـفاة" من سكان القرى والنجوع والأقاليم النائية. . وترهلت مؤسسات الدولة تحت سطوة مصالح أصحاب الثروة والنفوذ، وهشاشة سلطة الملك فاروق الذى انصرف عن الـتفرغ لشئـون الدولة. . وأحاطت شـبهات الفسـاد والخلل الإدارى بالجيـش المصرى، ومع تحكـم سلطات الاحتـلال البريطـانى فى موارد ومصـير البلاد التـى ظلت محتـفظة باستقـلالها غيـر الكامل عن بريطانيا، وانتشـرت الفوضى. . وكانت الأوضاع العامة للمنـطقة العربية تتحكم فيها وفى شعوبها سطوة إمبـراطوريتين كبيرتين: بريطانيا وفرنسا، ووراؤهما الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد وتدعم وعند اللزوم تتقدم. .

وفى هذا الإطار الحديدى من سطوة وسلطان قوى السيطرة الأجنبية، ومعاناة تـردى وتدهور الأوضاع الداخلية. . كانـت مصر مهيأة تـاريخيا لدور الفـرد التاريخى، الـقائد أو الزعيـم. . رجل له خصـائص وموارد إنسانية وكفـاءات شخصية تتيح له أن يستوعب آمـال وتطلعات الآخرين من مجموع الشعب، وأن يتولى مهمة تحقيق مجموعة أهداف مشتركة. . وهنا برز دور جـمال عبـدالناصر، رجل استـوعب حلم الأمة، وجـسد إرادتها، وحـرك هممهـا، وأعطى أمته يـقينا متـجددا بأنها مـوجودة. . وأصبح الرجل رمزا لتيار عريض ممتد عبر كل الحدود السياسية فى العالم العربى. . وكان الرجل بالطبع ـ مدركا وبوعى اسـتراتيجى لعبقرية الموقع وبأحكام الدور المصرى، وبضرورات وحتميـة الارتباط وبالانتماء للموقع الأكبر، للعمق الاسـتراتيجى العربى وعلى امتداد سـاحة من المحيط إلى الخليـج، ودون إغفـال للأهمـية الاسـتراتيـجيـة للدائـرتين الإفـريقيـة والإسلامية.

وكانت تجـربة عبدالناصـر كما يقول الأستاذ هيكل (كتـاب حديث المبادرة) أمام مجموعة اختيارات اجتماعية وسياسية ودولية. . فى الداخل كان الاختيار طريقا عربيا إلى نوع مـن الاشتراكية، وهو الخيار المتاح لبلد كان متوسط الدخل القومى للفرد فيـه حوالى ٤٧ جنيها فى بداية التجربة ـ وإذا تذكرنا الـتفاوتات البـشعة فى توزيع الدخـول وقتها أدركـنا حجم المشكلة الاجتماعية بعد المشكلة الاقتصادية ـ وترتب على ذلك خط معين فى التنمية الشاملة استطاع على سبيل المثال فيما بين سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٦ أن يعطى زيـادة سنوية فى الدخل الـقومى بمعـدل ٦,٧ فى المائة طبقا لتقرير البنك الدولى بتـاريخ ٥ يناير ١٩٧٦، وهى نسبة لم يكن لها مثـيل فى الـعالم الـنامى كله. . وإذا وضـعنا هـذه الزيادة أمـام مشـهد التحولات الاجتـماعية الضخمة التى عـايشتها مصر فى السـتينيات لرأينا صورة عظيـمة لشعب يبـنى حياته من جديـد بعمله وجهـده، خاصة إذا ذكرنا أنه فى تلك الظـروف لم تكن مصر تطلب من أمتها الـعربية عونا، ولا كانت تلك الأمة ـ بصراحة ـ قادرة على مد يد العون إلى مصر، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

ولقد امـتزجت التجـربة الداخلية المصـرية مع مطالب الأمن الـعربى الشامل، فأملت على مصر فى ذلك الوقت سياسة خارجية معينة اختارت طريقا مـستقلا، ولا منحـازا فى المجال الدولى، وتمكنـت من بناء توازن إقليـمى وعالمى اسـتطاع تمكين مصـر من قيادة قـوى الدفاع عن المصـير العربى، وانتصرت ـ أحيانا ـ كما حدث سنة ,١٩٥٦. ولـم تنتصر أحيانا كمـا حدث سنة ,١٩٦٧. وكان مـعيار أصـالة الالتزام المصـرى أنه فى النصـر لم يتكبر وفـى غير النصـر لم يتخـاذل، وإنما راح يحشد جـهده

ويعبئ قواه ويواصل مسيرته . .

. . . .

والشاهد . . أنه فى اللحظات التاريخية الحاسمة والمصيرية، كان "دور" مصر يمنح الشرعية لدور الفرد القائد أو الزعيم . . دور صانع القرار فى مرحلة تاريخية، يحدد خطوط استراتيجيتها العليا، مدركا لضرورات الأمن وضرورات المصالح القومية . . ولكنه يبقى مجرد مرحلة فى تاريخ طويل سابق، وفى تاريخ ممتد لاحق، ولكن تاريخ مصر لم يبدأ به ولن ينتهى به . . وطالما أن أحكام التاريخ والجغرافية هى أولى الثوابت . . وأن المعادلة الصحيحة للدور المصرى: عبقرية المكان وعبقرية الإنسان . .

هكذا كان دور الرجل بفعل أحكام الجغرافية والتاريخ . . وبصرف النظر عن اعتبارات حيوية أخرى.

هذه هى الحقيقة . .

وأتصور أننا مطالبون بأن نلقى نظرة جديدة على دور الرجال من حكام مصر وعلى مسرح الدور المصرى، وسوف نجد:

أولا: أن الحالة المصرية تختلف عن غيرها من دول وإمبراطوريات ارتبط دورها بزعماء فى مراحل زمنية متعاقبة . . عابرة، ومؤقتة، وهؤلاء الرجال خلقوا دورا لبلادهم وربما فتحوا أمامها أبواب مستعمرات خارجية وربما فتحوا أمامها طريقا للسيادة والنفوذ طوال حقب تاريخية محددة . . ولكن يبقى دور هذه الدول أو حتى الإمبراطوريات هو "صنيعة" أدوار زعمائها وأهدافهم ومطامعهم أو حتى تحالفاتهم الخارجية . . والدول التى

يعتمد دورها على دور الفرد القائد أو الزعيم تواجهها غالبا مشاكل اجتماعية حافلة بتناقضات ساخنة وحادة!! أما دور مصر فهو الذى يخلق ويحكم دور القائد أو الزعيم والذى يؤدى مهمته فى لحظة تاريخية قد تكون فاصلة استجابة لداعى التاريخ، ويستوعب بالضرورة أحكام وضرورات وحجم دور مصر الذى استقر بناؤه على ثوابت.

ثانيا: أن دور الفرد التاريخى فى مصر يجىء فى لحظة هى أقرب من الأقدار التاريخية.. خارج إطار التوقعات.. ولذلك كانت المتغيرات المفصلية فى تاريخ مصر أحداثا مباغتة للآخرين، وقد تحمل دهشة المفاجأة للشعب المصرى نفسه.. ودائما يأتى التوقيت والتنفيذ خارج أية احتمالات قائمة، وقد لا تنبئ الظروف والأحداث - فى زمنها - بإمكانية تحقيق ما يحدث من تغيير، وإعادة تصحيح مسار التاريخ المصرى.. وقد حدث هذا - مثلا - حين دخل الهكسوس مصر، وشيدوا عاصمتهم "أواريس" فى شرق الدلتا، واستمر احتلالهم حوالى قرن ونصف قرن من الزمان.. وتنطلق شرارة ثورة مصر ضد الهكسوس ويطاردهم "أحمس" ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق.م بعد أن هاجم عاصمتهم "أواريس" ويحاصر آخر معاقلهم "شاروهين" قرب العريش لمدة ثلاث سنوات ويحرر البلاد منهم، وتبدأ مرحلة جديدة لإمبراطورية مصرية عظيمة..

وحين تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر فى النهاية والتى كانت تشهد صراعا على السلطة بين المماليك بعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وأدى الصراع إلى شبه فراغ لموقع السلطان مع مؤامرات العزل والنفى والسجن والقتل، وفى مقابل الأجواء القلقة غير المستقرة فى مصر كانت الخبرة القتالية الطويلة للمغول تتحفز لاقتحام مصر وفى ظل

الصراع الصليبى المستمر . . ولكن مـا حدث . . أن تقدمت مصر المملوكية بقيـادة "قطز" لتـعطى المغول أول وآخـر انكسار لـهم فى عين جـالوت التـاريخيـة ١٢٦٠م . . وحتى حيـن تحولت مـصر إلى ولاية فـى الدولة العـثمانـية واحـتفاظ المـماليك بـعصـبيتـهم، وقد عـظم نفـوذ وسطوة "البكوات" منهـم وأصبحت "الجبايـة والاتوات" همّا ثقيلا عـلى كاهل الشعب المصرى، وزادت حدة الأطماع فى مرحلة تمزق السلطة بين ثلاث قوى طامعـة، لم يكن أحد يتوقع أن يكون هـناك صوتا للقوى الشعـبية المصرية التى أرهقـتها سنوات من القهر والظلم . . ولكـن العامل القومى كان حيـا فى الوجدان المصرى، وترفع إرادة القـوى الشعبية محـمد على إلى منصب الوالى، وتبدأ سنوات نهضة مصر الحديثة . .

. . . .

وحتى ما حدث فى ذلك المساء المتأخر من يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ كان خارج التوقـعات حين قاد مجمـوعة من شباب الضباط الأحـرار - بقيادة جمال عـبدالناصر - وهم يدركـون حجم المخاطرة المحيطـة بهم، وحجم وسطوة الأطراف المؤثرة فى ذلك الوقت واللاعبة الأساسية فيه من القصر وأجهزته الأمنية وتساندها إدارة أمنية كبيرة، ومن السلطة الغالبة للاحتلال البريطانى لمـصر وحشوده العسكريـة، ومن الفعل النافذ لحركـة وتحركات السفارتين البريطانية أولا ثم الأمريـكية، وبالضرورة لم يكن يغيب عنهم ولاءات القيادات العليـا فى الجيش للنظام، إلى جانب المصـالح المتشابكة والمتوحشة بين السلطة وبين الطبقة النافذة والحاكمة بما تملك من إقطاعيات ومن عليها، ومن رؤوس أموال وما لها من سطوة ونفوذ فى البلاد، وهى تتحرك نحو الانهيار وأن الاتفاق العام بأنه لا أمل فى شىء فى مصر طالما

الملك فاروق موجودا . .

وكانت هنـاك أهداف محددة وأحلام مشـتركة كمـا يقول د. ثروت عكاشة ـ وهو أحد الذين شاركوا فى صنع الثورة ـ لم نكن خلايا معزولة عن الشعب ولا عـن أمانيه، بل كنا أداته المحـققة لتطلعاتـه، وكانت لنا مبادئ لا يمكن أن تستخفى وراء الغـموض، بل كانت أكثر وضوحا من أن يختلف عليها اثنان، وما كـان من الممكن أن يخرج فى ليلة ٢٣ يوليو هذا العدد من ضباط الجيش مختلفى الاتجـاهات والميول السياسية حاملين رءوسهم على أكفهم وهم يسعون إلى أهداف غامضة إلا إذا كانوا نفرا لا يجمع بينهم رأى جامع بل يعشش فـى وجدانهم بله غريب!! إننا انطلقنا حاملين أهدافا ستة لا تمـثل برنامجا تفصيليا دقيقا لكـل منها لكنها كانت ترتكز على مفهـومين أساسيين هما تخليص الوطن من قـيود الاستعمار والاستغلال ورد الاعتبار إلى الشخصية المصرية.

. . . .

. . . .

واتصالا بما سبق

فإن دور الفرد التـاريخى ـ القائد أو الزعيم ـ داخـل موقع أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر ـ يأتى استجابة لضرورات وأحكام دور مصر . .

❑❑❑

دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

النصف الآخر للحقيقة

"ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس.. ويرفعون الالتباس، ويفكرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون"

عبد الرحمن الكواكبي

ويبقى دور جمال عبدالناصر رقما بارزا فى حسابات التعريف التاريخى لدور الفرد فى مرحلة تاريخية معينة.. يبقى دوره كاشفا لدلالات ومعان دور الفرد التاريخى من حيث الالتحام والتوحد مع دور مصر.. من حيث معايشة ضرورات وأحكام هذا الدور.. وربما يمكن القول - تجاوزا - وكأن دور مصر كان يترقب دور الرجل، بعد سنوات من عمر التاريخ شهدت حصارا على هذا الدور، أو إغفالا أو تجاهلا لمقدرات ومفهوم دور مصر، أو العجز عن إدراك الموروث التاريخى والحضارى والإنسانى لهذا الدور، أو عدم القدرة على استلهام روح مصر، واكتشاف أبعاد الدور المصرى الذى يتجاوز حدوده إلى ما هو أبعد من الموقع الجغرافى، وباعتبار أن قدر مصر أن تصبح قوة إقليمية فاعلة ونافذة ومؤثرة بعروبتها وبعمقها الاستراتيجى فى إفريقيا، وقوة عالمية بمكانتها وتأثيرها فى حركة الأحداث داخل العالم الثالث وبعمقها الاستراتيجى داخل الدائرة الإسلامية الأوسع..

....

وإذا كانت الحركة التاريخية التى قادها جمال عبدالناصر قد أثرت فى منطقة تجاوزت حدود الدوائر الثلاث العربية والإفريقية والإسلامية. فإن دوره بالأساس كان يعتمد على الوعى الاستراتيجى بإحكام دور مصر، وبمصلحة مصر الاستراتيجية.. ولذلك لا يزال الرجل متفردا بزعامته فى وجدان الأمة، وأن يتحرك خاطرا يحوم حولها كل يوم، وطوال تلك السنوات التى لا نعرف لها نهاية.. ولا يبدو أن لها نهاية مقدرة حتى الآن!! والزعماء خالدون بما أعطوا، وبما تركوا، وبما رسخوا من مبادئ وقيم ومواقف.. وفى جانب كبير من هذه الصورة كانت حياته ملكا لأمته وقارته الإفريقية، وكانت أفعاله أقوى وأمضى من كل الأفعال.

ومثل هذا لا يزال قائما فوق ساحتنا العربية وخارجها . .

ومثل هذا وجده الأديب الكبير بهاء طاهر متجسدا فى إفريقيا . .

وتقول الواقعة كما يرويها الروائى الكبير:

كنا فى رحلة من العاصمة نيروبى إلى مدينة كينية أخرى، وتوقفت بالسيارة فى قرية صغيرة على الطريق فتوجهت مع مجموعة من جنسيات مختلفة نبحث عن سجائر فى ذلك المكان . . دلونا على دكان صغير يشبه مثله فى أى قرية من قرانا، حيث تتكوم أجولة السكر والدقيق فى ناحية وبجوارها صفائح الزيت وقطع الصابون المرصوصة، وأوعية تضم حلوى للأطفال، ورف للسجائر . . الخ، ووسط كل تلك الفوضى كانت هناك، فى صدر المحل صورة مثبتة بالدبابيس فى الحائط، صورة ملونة قديمة لوجه يبتسم، وكنت أعرفها جيدا "صورة جمال عبدالناصر" . . وعندما اشتريت السجائر من صاحب الدكان العجوز، سألته بشكل عابر:

صورة من هذه المعلقة هناك؟

فالتفت الرجل خلفه فى دهشة مشيرا إلى الصورة وهو يسألنى:

ألا تعرف من هو؟

لا

فقال الرجل ببساطة: هذا هو أبو إفريقيا.

ولن أنسى ما حييت البساطة واليقين فى لهجة ذلك الرجل الأشيب وهو يقول لى بلكنته الإفريقية (This is the father of Africa) وقفت صامتا للحظة. كنت قد تركت مصر وقتها، وصحف العهد تتبارى فى الهجوم على عبدالناصر، لم يترك الكتاب نقيصة إلا وألصقوها به، وكان

نشر صورته أيامها من المحرمات، ناهيك بالطبع عن إذاعة صوته، أو الإشارة إلى أى شىء حسن فعله فى حياته، حتى بحيرة ناصر خلف السد العالى، معركته الكبرى، وإنجازه الباقى، شطبوا اسمه من عليها مخافة أن يذكر الناس به.. "

....

....

وفى مجمل الأحوال فإن الملائكة لا يسكنون الأرض، والرجل الكبير - رحمه الله - خاض تجربة متفردة فى تاريخ مصر والأمة العربية.. وللتجربة إيجابيات وسلبيات، ولكنه حاول أن يحدد ملامح المشروع العربى الكبير، وهو يحمل هموم أمته، قاصدا العبور إلى مرحلة التغيير السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى، وقد كان عظيما مع كل المحاولات.. ولأنه لا يمكن إلا أن يكون هكذا..

ومعيار الحكم على الرجل الكبير يجب أن يرتكز أولا على ثلاثة محاور.. الزمن والفعل والإنجاز..

الزمن: بتوقيت المرحلة التاريخية وأوضاعها وظروفها وأحداثها..

والفعل: بمفهوم الحركة التاريخية لدور مصر والمتغيرات التى هبت على الساحة العربية

والإنجاز: بحقائق المتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية داخل مصر.. ثم نقيس بحجم هذه التجربة حجم الأخطاء والسلبيات.

ولا أعتقد أن هناك من ينكر ولو فى لحظة صدق مع النفس.. ولو

فى لحظة مباغتة لاسترجاع زمن الحدث الذى مضى . . أن الرجل الكبير ـ وهو فى رحاب الله ـ لا يزال يمثل رمزا لشموخ وكبرياء هذه الأمة، بعد أن أعاد تقويم مسيرة التاريخ العربى بعد عشرات السنوات من الضياع والاحتلال والسقوط تحت سلطات مستعمرات النفوذ والمصالح . .

وهذا ما تقوله حقائق الزمن الراهن!!

وكان رحمه الله ـ أكثر وعيا لدور مصر الإسلامى . . وكان تقديره أن الأزهر الشريف يمكنه أن يؤدى دورا رائدا وفعالا ومؤثرا، وبالتالى كان لابد له أن ينهض ليواكب التطور الهائل فى شتى نواحى الحياة المختلفة، وأن يخرج بالأزهر الشريف من دوره المحلى إلى دوره العالمى . . فقد كان عبدالناصر مدركا لهذا الدور وكان يرى أن الطبيب الأزهرى والمهندس الأزهرى، والباحث الأزهرى، فى شتى العلوم التجريبية، يستطيع أن يؤدى دورا لا يقل أهمية عن الدور المتخصص فى الدراسات العربية والإسلامية، وأنه عبر الدهر سيخلق تواجدا لمصر فى العالم . . ومن هنا كانت رؤيته لأهمية تعليم المسلمين فى إفريقيا، وربما كان ذلك أحد أسباب تطوير الأزهر الشريف وتوسيع مجال الدراسة فيه ليشتمل على بعض الكليات العملية والتخصصات الأخرى . . وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور مصر أن تتولى مسئولية التعليم فى هذه المناطق كلها، ولكنها كانت تريد أن توجد النخبة المتعلمة من المسلمين فى كل مكان من إفريقيا . . ولم تشأ مصر أن يصحب هذه المساعدات ضجيج أو دعاية تتناسب مع حجمها، خاصة وأن مساعدة المسلمين فى كثير من الأحوال كانت تثير شكوكا وحساسيات لدى بعض الزعماء والحكومات فى الغرب . .

وفى عهده خصصت المنح الدراسية لإفريقيا فى جميع الميادين بما فيها الأزهر الشريف والجامعات والمدارس الأخـرى، وكان هناك اهتمام خاص بالمناطق الإسـلامية.. وعلى سبـيل المثال كانت المـنح الدراسية مفـتوحة لإريتريا منذ عـام ١٩٥٥ بحيث لا يرد أى طالب علم يأتـى من إريتريا، وأعطيت التـعليمات لأجهـزة الأمن على الحدود، بألا يمنـع إريترى من دخول الأراضى المصرية، حيث كان الإريتريون يحضرون إليها سيرا على الأقدام للالتـحاق بالأزهر، وذلك نتيـجة للاضطهاد الذى كـانوا يلاقونه أثنـاء حكم الإمـبراطـور هيلا سيـلاسى، حتـى أنه طلـب من جمـال عبـدالناصـر فى إحدى زياراتـه إلى القـاهرة، أن تقدم المـنح المخصـصة للإريتـريين فى الأزهر عن طريق الحـكومة الأثيوبيـة، ولكن عبدالـناصر رفض متـحجحا بأنه لا يـستطيع التـدخل فى شئون الأزهر.. فـقد كان عبـدالناصر يرى ضـرورة فتح أبواب الـعلم أمام المسـلمين وخـاصة فى المناطق التى حـرموا فيها من فرص الـتعليم لمجرد أنهم مسـلمون، وكان يشعر بأن مـسئولية خاصة فى هذا المجـال تقع على عاتق مصر بصـفتها أقدم دولة إسلامية فى إفريقيا، وأكثر دولة قدرة على تقديم هذا النوع من المساعدات..

وكان عبدالناصر حريصا على توحـيد صفوف الأمة الإسلامية، وسد الثـغـرات التى يحـاول الآخـرون إثارة الفـتنـة من خـلالها بـين السـنة والشيعة.. ودعا فى عام ١٩٦٢ إلى مؤتمر علماء المسلمين.. ولأول مرة فى تاريخ مـصر يجتـمع علماء المذاهب الـثمانيـة " الحنفية ـ المالـكية ـ الحنابلة ـ الشافعية ـ الإمامية الاثنى عشرية من إيران ـ والزيدية من اليمن ـ والأباضية من عمان ـ والظاهريـة من "الجزائر".. وكانت رؤية جمال عبدالناصر فى هذا الوقت المبكر هى أن تقدم الأمة مرهون بأن تعيد قراءة

تراثها وتوحيد صفوفها، وقد نتج عن المؤتمر جهد فكرى عظيم سجل فى موسوعة ناصر للفقه الإسلامى، وتتناول بحث كافة المسائل الفقهية، وحكم المذاهب الثمانية فيها، بدأت من حرف (أ) ومازالت تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تأكيدا بأن المذاهب ليست أديانا بل هى فهم للدين..

....

....

وأعتقد أن قراءاته المتعمقة للتاريخ ـ وكانت هوايته الأولى منذ مرحلة الشباب الأولى ـ خلقت علاقة شبه صوفية بينه وبين ضرورات وأحكام دور مصر، وأن يكون هذا الدور فاعلا ونافذا ومؤثرا ومتواصلا على ساحة تجاوزت بالطبع ـ وبأحكام دور مصر ـ حدود الجغرافية المصرية.. وهى سنوات من عمر التاريخ المصرى المعاصر عبرت عنها كلمات الدكتورة سهير اسكندر ـ حزب الوفد ـ بإيجاز أكثر تعبيرا ومصداقية.. وهى تقول: كنا نشعر بالاستقلال الفعلى، بل لعلنا أسرفنا فى الشعور بالزهو والثقة، ذلك كان حال مصر فى مرحلة الستينيات الخصبة فنيا وثقافيا، فقد كانت مصر مستقلة ومنتجة وحاضرة..

وبإيجاز غير مخل كان دور مصر الثقافى فى هذه الحقبة رياديا وفاعلا ومؤثرا.. وهى حقيقة تراها الدكتورة هالة مصطفى ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتجية بالأهرام ـ قد سجلت أروع ازدهار للأدب والفن الروائى والسينمائى.. حرية الإبداع وحرية التعبير عنه. فى زمانها كتب ونشر نجيب محفوظ أديب وروائى مصر العظيم أعظم أعماله وأكثرها جرأة ونقدا للواقع السياسى والثقافى والاجتماعى: "سائق القطار"

و"ثرثرة فوق النيل" و"ميرامار" و"المرايا" وغيرها، وكانت هذه القصص والروايات تنشر على حلقات فى الصحف والمجلات القومية قبل أن يتحول بعضها إلى أعمال سينمائية، وكان الأهرام بتقاليده العريقة الممتدة إلى الآن فى مقدمة تلك الصحف. وفى نفس الزمن قدم أديب مصرى كبير آخر هو ثروت أباظة روايته الشهيرة "شىء من الخوف" التى أثارت وقتها زوبعة سياسية، واعتبرها البعض نقدا صريحا للحاكم.. والحاكم وقتها لم يكن سوى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.. وتحولت الرواية إلى فيلم سينمائى شاهده ناصر بنفسه، وبعدها سمح بعرضه فورا دون رقابة: وهذا جانب مشرق من الصورة، بل مشرق جدا لتلك الحقبة بما لها وما عليها".

وميزة القائد التاريخى هى مقدرته على الاتصال بالحقائق التاريخية وقابليته للتعبير عنها: فكرة وحركة.

وهكذا كان تجسيده لدور تاريخى، يمليه عليه دور مصر..

وأتصور أن الإعلام الغربى كان على درجة كبيرة من الوعى بما سيحدث فى المنطقة بعد غياب دور الرجل.. وكانت التوقعات - بعد الرحيل مباشرة - أقرب إلى استشراف وقائع المستقبل العربى، واستكشاف تخوم المتغيرات التى ستهب على الساحة العربية..

قالت صحيفة "الجارديان".. البريطانية: إن العالم كله سيبكى ناصر بوصفه رجلا متفوقا حتى على نفسه.. وتستشعر بغيابه إسرائيل.. وكانت له قدره فائقة على تغيير مجرى الأمور فى بلاده.. والقيادة العربية كلها ستتأثر بوفاته، لقد فقد العرب قائدا معترف به بل إن العرب الذين كانوا يخالفونه سيبكونه يوما..

"التايمز" . . إذا كانت عظمة الرجال تقاس بقدر الفراغ الذى يتركونه بعد مماتهم، فإن ناصر يعتبر بحق أعظم الرجال. . كان تأثيره كبيرا، يمد ظلاله من الشرق الأوسط على قارات المنطقة، واحتل مكانة كبيرة.

"الديلى تلجراف" . . صحيح أن ناصر وحده كان يستطيع أن يقنع كل العرب بالتوصل إلى سلام دائم مع إسرائيل، ولكنه أيضا كان الوحيد القادر على أن يجعلهم يحاربون إلى آخر المدى.

"الواشنطن بوست" . . لقد اختطف الموت ناصر وهو فى موقف سياسى بارز وهو يحاول حقن الدماء فى الأردن. . لقد كان ناصر دائما فى القمة وقد سجل له التاريخ مآثر كثيرة.

"الايفننج ستار" . . لقد جاءت وفاة ناصر فى وقت من أحرج الأوقات التى يمر بها الشرق الأوسط، وصحيح أن الغرب لم يجد الفرصة ليفهم ناصر، ولكن الخسارة بوفاته جاءت خسارة للعالم كله لذكائه غير العادى وقوة إرادته وشجاعته. .

"النيوزويك" . . لقد رأينا فى مصر ثلاثة أنهار، نهر النيل، ونهر البشر، ونهر الدموع، ومن هنا عرفنا عظمة الرجل. .

. . . .

. . . .

أصبح دور الرجل. . رمزا لدور مصر.

وجاء الرثاء الذى كتبه فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ رحمه الله ـ فى ذكرى الاربعين لرحيل عبد الناصر فى شهر نوفمبر ١٩٧٠ أكثر تعبيرا عن خصائص العلاقة بين الدور والزعيم. . قال "الشعراوى" :

وقد كان البطل الماثل، ولا أقول الراحل، فلتة زعامة، وأمة قيادة، وفوق الأسطورة للريادة، لأن الأسطورة خيال متوهم، وما فوق الأسطورة واقع مجسم، إن بطلنا الماثل لا الراحل قد عرف أبعاد الحياة للعبقريين الموهوبين، عرف لحياته عرضا، وعرف لحياته عمقا، وعرف لحياته سموقا، وتدرج بحكمته المذهلة فى تخطى تلك الأبعاد كلها شمول ووعى للزمان والمكان والإنسان، وتأصيل مبادئ فى النفس، ثم انتقل البطل إلى الدائرة الثانية من أبعاد حياته، فانتفض العملاق العربى برأسه متطاول إلى السماء وقدمين راسختين فى الأرض ومد يديه ليحدد وطنه العربى بجغرافية الحق لا بخرائط الرق، فاستقرت أنامل يمناه على الخليج العربى، واستقرت أنامل يسراه على المحيط الأطلسى، وظل يهدهد العروبة حتى شبت فى الرؤوس، وتأججت عقيدة فى النقوس، وأصبحت نشيدا على كل لسان، ولقد سمعت من أخى الدكتور "رزقانة" فكرته فى تلك الدائرة قبل فكرته فى الدائرة التى وصفها فى فلسفة ثورته، الدائرة الثالثة، لأن الإسلام بالعروبة انساج، وبها امتد.. وأعانه على ذلك إسلامه بكل ما فيه من تعاون وتواد وتحاب، وحرية وإخاء ومساواة.. كان رحمه الله أمام كل ثورة تحررية بالإيحاء والقدح، ووراءها دائما بكل الإمكانيات والمنح، فوضع البطل بصماته الإنسانية على التاريخ المعاصر، ولذلك لم تجرؤ قوة فى الأرض أن تزحزح المظلومين عما لقنهم "جمال" من مبادئ للإباء على الضيم، والانتفاض على الظلم، والنهضة إلى الآمال الواسعة والوارفة، ولن تستطيع أى قوة فى الأرض، أن تسلب المكاسب التى أدتها إنجازاته، ولا أن تحجب الآفاق التى أعلنتها تطلعاته.. لم يكن زعيما فحسب، وإنما كان أستاذ زعامة، ولم يكن ثائرا فحسب، وإنما كان معلم ثورة ودارس مبادئ، وكانت

عبقريته فى غرس هذه المبادئ. . وأسألك يا رب أن تجزيه الجزاء الأوفى على ما قدم لإسلامك من شيوع وتثبيت وانتشار وإعلام، وعما صنعه كما قال أخى فى الأزهر الذى تطور به ليتطور مع الحياة وليجعل منه بحق منارة الدين وحملة رسالة الله.

كان رثاء رجل الدين، لرجل السياسة، تقديرا لما قدمه لوطنه ولأمته، فى حقبة تاريخية، هى من أخصب حقب التاريخ العربى الحديث، وحين كان دور مصر حاضرا وفاعلا ونافذا. .

. . .

وهكذا كان دور الرجل. . رمزا لدور مصر

. . . .

ومع مراعاة تجنب الجدل حول دور الفرد فى التاريخ، أو دور التاريخ فى صناعة البطل، أو حكم المصادفات، والعوامل المساعدة فى خلق أسطورة الفرد التاريخى، فإن الثابت لنا عبر القرون الممتدة أن للتاريخ مشاعل تضىء دروبه وتهدى مسيرة الشعوب إلى طرق مقاصدها حتى تبلغ أهداف آمالها أو على الأقل أن تنتبه إلى حالها وما هى عليه وتنفض عن كاهلها تلال القنوط واليأس. . ودور القائد البطل ليس حكرا على المجتمعات المتخلفة أو النامية أو التى تعانى من قهر التخلف والسيطرة الخارجية. . ولكن حتى المجتمعات المتقدمة التى ترتكز إلى مؤسسات دستورية فإن دور الفرد القيادى لا يختفى من حياتها، فكثير من الرجال كانوا "بوصلة" شعوبهم وأساس الحركة التاريخية لحياتهم فى أوقات الأزمات والمحن. .

وإذا كان هذا دور الفرد فى المجتمعات وفى حركة التاريخ . .

فإن هنـاك أحداثا تعد نـقط تحول تاريخـية فى حيـاة الأمم يمكن أن نطلق عليها (أحداث المهام الكبيرة) الـتى تنجز على أرضها وحولها واقعا جديدا يجّسد إرادتها ويحرك هممهـا، أى تسحب وراءها متغيرات شاملة أبعد مـن حدودها المحلية، وتـبشر بعـهد جديد، وحـقبة زمنيـة جديدة تزدحم مشاعرها بمختلف الرغبات والتمنيات لصياغة مستقبل جديد .

. . هكذا كان دور جمال عبدالناصر . .

وهكذا كان دور ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

أى أن للأمة العربية تاريخا حديثا يمكن كـتابته وتسجيله وتوثيقه مع بداية الثـورة حين بدأت الآمال تنـمو نموا طبيعـيا، وحين بدأت الـعقول العربـية فى اكتـشاف مجـموعة أهداف مـشتركة وآمـال وتطلعـات تحيط بمشروع المستقبل .

وبعد الرحيل . . كان للفراغ السياسى دورا آخر ! !

وهكذا ـ كما يقولون ـ تمهد الأقدار . . للأقدار . . وتمهد الأحداث . . للأحداث ! !

□□□

دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

من أوراق السبعينيات
الثوابت.. والمتغيرات

"الشخصيات وليست المبادئ هى التى تحرك الزمن"

أوسكار وايلد

ما حدث فى بداية حقبة السبعينيات لم يكن بعيدا عن دائرة التأثير فى حركة الدور المصرى. . كان "الدور" هو الهدف. . إبطال مفعول الدور المصرى و"حشره" داخل الساحة الجغرافية لمصر، وبعد أن كانت خطورة جمال عبدالناصر ـ بالنسبة للقوى الطامعة والغالبة ـ أنه كان تيارا عريضا ممتدا عبر كل الحدود السياسية فى العالم العربى. . وكانت هناك حركة تاريخية عامة ونشطة فى المنطقة تستند إلى دور مصر قبل أى شىء آخر، وهو دور يمتلك عناصر قوة غير منظورة، وتأثيرها أشد من تأثير عوامل القوة المنظورة. . ولذلك لم تتأخر حملة التشكيك الموجهة لمصر ـ إلا أياما معدودة ـ بعد رحيل عبدالناصر، ومع بداية تصوير ثورة ٢٣ يوليو وكأنها سنوات طويلة من القهر والظلم والاستبداد!! ثم جرى تصوير ملحمة السد العالى وكأنها كارثة بيئية حلت على الأرض الزراعية فى مصر!! وأصبحت حرب السويس هزيمة ساحقة، رغم انتصارها الذى كان نقطة تحول فى العالم العربى، وفى قارات العالم الثلاث النامية آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وحين سجلت نهاية مرحلة أكبر إمبراطوريتين فى العالم ـ البريطانية والفرنسية ـ وحتى تأميم قناة السويس أصبح قرارا انفعاليا جر على مصر عدوان ثلاث دول، ودون الاحتكام للعقل وانتظار الموعد القريب لانتهاء فترة الامتياز عام ١٩٦٨ !

ولم تقف حملات التشكيك عند هذا الحد. . ولكن. . تجاوزت كل الحدود والخطوط، وفوق كل ما يمكن تصوره!!

وكان الهدف أن يهتز يقين الشعب المصرى فى كل إنجازاته، وفى كل شىء حوله، ليصل إلى حالة إحباط تورثه شعورا من اللامبالاة يجعله يقبل بما لا يمكن قبوله، وأن يسكت عما لا يجوز السكوت عليه، ـ حسب تعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ وكان الخطأ وقتئذ أن البعض

تصور أن مـا يحدث مـجرد شئـون داخلية مـصرية، حيـن راجت تجارة (صناعة المذكرات) وتسـويقها، ودخلت الساحة أقلام جـديدة تبحث عن (الرزق المتاح) ولا يهم ـ فى مفهومهـا الأخلاقى ـ الثمن المقابل، بعد أن استبـيحت سطور التاريخ وبعـد أن تراءى لها بالظن أو باليقـين وحسب وسائل الإدراك أن فـجر الكلام المباح أهدر دمـاء مرحلة كاملـة برموزها السياسـية والفكرية والثقافيـة التى شاركت فى تشكيل وخلق الـتوجهات القومـية للجماهـير العربية، ووعـيها بمسـتقبل وجودها، وبـلورة فكرها ووجدانها الثقافى.

واستمرت سنوات (الحملة) وتعددت جـبهات الأقلام لتفكيك أوصال الأمة والإجهاز عـليها بإثبات الإدانة ـ سـياسيا وفكريا ـ ومن ثم تـصفية فكرة القومية العربية وقطع شرايين مشاعرها الممتدة بالانتماء داخل الجسد العربى الواحد.. والهدف كان محـددا ـ ولا يمكن أن تنزلق الرؤية بعيدا عن مساحته الكـلية ـ وهو اختراق العقل المصرى والعربى اخـتراقا متعدد الزوايا ومكثفا، حتى إذا فشلت "نظرية الردة" ولم تحـقق مكاسبها بتغيير قيم ومـبادئ فإن ما يمـكن التوصل إليه هـو حالة من عدم الاسـتقرار ـ البلـبلة ـ أو تفكك أنـسجة الـعقل العـربى ثم توجـيه الخطاب المـناسب للمرحلة المناسبة!! والنتائج ـ بكل أسف ـ كانت تدميرا للأحلام والآمال والتطلـعات داخل خريطـة القوميـة العربيـة ومحاصرة مـبادئها بـقذائف مستمرة أطلقتها بعض الأقـلام، لذلك فإن ما حدث من حولنا وبدعاوى حرية الرأى والقول كان بـالتحديد عملية حفر تحـاول بشتى الطرق تحطيم الأعمدة التى قامت عليها واعتمدت على صلابتها أسس الفكر العربى.. وتصدعت داخـل عقول الغالـبية العظمـى من الجماهيـر المصرية معـايير

القياس والحساب، وتكسرت تحت أنظارها موازين عديدة كانت تساعد فى وضوح الرؤية، ثم انتقلت العدوى إلى الجماهير العربية، وبعد أن كانت تراقب ما يحدث فى مصر بدهشة تصل إلى حد الاستنكار شديد اللهجة!!

. . . .

والغريب ـ حقا ـ أن تلك الأقلام التى ساهمت بقدر معلوم فى إدارة مهرجان "قذف السهام" على شواهد المنجزات وسط موجات التشويه والتجريح والإدانة الشاملة الظالمة ـ هى نفس الأقلام التى نالت قدرا عاليا من إعجاب واحترام القارئ المصرى والعربى طوال فترة نبوغها الأدبى ونجاحها الصحفى خلال الثمانية عشر عاما من حكم عبدالناصر، وبعطائها الفكرى وجدت الفرصة مهيأة لانتشار إبداعاتها، ولو حدث ما قيل عن تكسير أقلامها ما كنا بالضرورة قد سمعنا أو قرأنا عن تلك الأسماء ومتابعة إنتاجها الوفير! فكيف يمكن للتربة المستعمرة بسنوات القهر وسلطان الفرد أن تقدم لنا ثمارها من الإنتاج الفكرى، وأن تنبت فوقها عقولا كانت لها الريادة الأدبية على الساحة العربية؟!

. . . .

. . . .

وأعتقد أن مهمة الحملة كانت محددة بتمهيد الساحة وتجريف الثوابت. . ثم شق الطرق داخل العقل العربى ليتقبل المتغيرات الطارئة والمستجدة!!

عموما. . لم نهتم كثيرا ونحن نتابع مشاهد الحملة وتسلسل بناؤها

الدرامى وتعدد الأساليب والأدوات ـ بمستقبل الوعى داخل العقول العربية ـ ولأكثر من جيل ـ تمكن منها كم هائل من الإحباط . .

* جيل كامل شهد مولد الثورة فى سن النضوج وآمن بمبادئها وتحمس لها فأعطى الثقة كاملة لقائدها وبإعجاب يصل أحيانا إلى درجة الانبهار .

* جيل الأبناء ـ الذين بدأت أعمارهم مع بداية الثورة وحين رحل عبدالناصر كانوا زهرة شباب هذه الأمة المتفتحة بالأمل ـ جيل يبحث ويناقش ويتطلع إلى آفاق رحبة لا تحد حركته أو تعيق رؤيته نكسة ١٩٦٧ .

* وجيل آخر بدأ سنوات العمر بعد وفاة عبدالناصر وتفتحت عيون الوعى لديه مع مؤلفات الحملة وهم لا يدرون أين الحقيقة بعد أن أصاب "الدوار" جيل الآباء نفسه .

* وأجيال قادمة سوف تعى مؤخرا أن تاريخها قد تعرضت سطوره خلال سنوات حقبة السبعينيات لأسوأ محاولات السطو وحذف النقاط من فوق الحروف حتى تبدو السطور مبهمة أو "مشوهه" وتقبل الإحلال أو التبديل وتخضع لعوامل الطرح والقسمة .

وإذا كان "نابليون" قد حدد بالقول أننا أمة تحركها الكلمة . . فإن ما وراء القصد كان استخدام (الكلمة) لغزو عقول تلك الأمة والسيطرة عليها ! !

ولقد خلقت هذه الظروف وعيا "مشوهًا" . . وقد بدأت تنهار قيم ومبادئ أحاطت سياجها بمفهوم التضامن العربى ، ووحدة المصير ،

والهدف، ووحدة الأمن القومى العربى.. وعلى هذا النحو جرى تشكيل المفهوم الجديد بأن تلك المفردات كانت أوهاما وشعارات بالية اختلست من العمر سنوات بلا فائدة.. وكان هناك شبه صراع على ذاكرة مصر ويريد لها بعضهم أن تنسى فى منتصف الطريق.. من هى!!

....

....

وعودة إلى تأكيد القول..

فإن هذه الحقبة قد شهدت رياحا عاصفة هبت بالشكوك حول عروبة مصر.. وارتفعت - وقتئذ - بعض الأصوات ترفع من شأن "مصر الفرعونية" وتدفع أمامها بشعار "مصر أولا" والانتماء للمصلحة الوطنية أولا وأخيرا، وفى مواجهة "عروبة مصر" والانتماء لهوية "القومية العربية".. ووسط تلك الدوامات من تساؤلات الشك، تم إدانة دور مصر تجاه ثورة اليمن وثورة الجزائر، وأصبح عطاؤه فى محل الاتهام!! وبدأ التلاعب بحقائق استراتيجية ضخمة تستند إليها دعائم دور مصر الذى جعل منها قوة إقليمية بعروبتها، بل وعلى قاعدة عروبتها جعل منها قوة عالمية بمكانتها فى العالم الثالث وبتأثير حركتها داخل قارتها الإفريقية..

وأتصور أن الطعن فى حقيقة انتماء مصر إلى أمتها العربية.. كان.. بقصد تعطيل حركة الدور المصرى..

....

ولا أعرف هل هى مصادفة أن تثار نفس القضية مجددا - من أوراق

السبعينيات ـ بعد أن فتح الكاتب الراحل أسامة أنور عكاشة مرة أخرى أبواب الجدل بعد أكثر من ٣٥ عاما حول حقيقة لا تقبل الجدل؟! ولا أحد يعرف لمصلحة من التشكيك فى عروبة مصر؟! والتساؤل الحائر والقلق يفرض نفسه.. وأتفق مع الباحث ضياء رشوان ـ الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ فيما يقول.. هل هى مصادفة أم مفارقة، أن يكون أول هجوم "صاخب" على فكرة عروبة مصر، وعلى توجهات ثورة يوليو ١٩٥٢ القومية العربية بقيادة الرئيس جمال عبدالناصر بعد رحيله، آتيا من سيد المسرح العربى توفيق الحكيم عام ١٩٧٢ فى كتابه "عودة الوعى" وأن يكون آخر هجوم من النوع نفسه قادما من أبرز كتاب الدراما التليفزيونية "المصرية العروبية".. أسامة أنور عكاشة؟! والأرجح أننا أمام مصادفة ومفارقة فى الوقت نفسه مع تشابه فى المنطق الذى يبنى عليه الكاتبان الكبيران الحجج، التى ساقاها للتبرؤ من عروبة لبلدنا تتبناها تيارات سياسية وفكرية عديدة، وتؤكدها معظم الوقائع والحقائق التاريخية والحديثة المعاصرة، فضلا عن غالبية المصريين أنفسهم.. والمصادفة قادمة من طبيعة الشخصيتين، ومن توقيت الهجوم "الصاخب"..

أما مصادفة التوقيت، فهى أن يأتى الهجوم ـ السابق واللاحق ـ على انتماء مصر العربى وحقيقته فى مرحلتين تشابهتا فى كثير من الملامح الخطرة، وأبرزها تفشى دعاوى التفتيت ومحاولاته الدؤوبة على الصعيدين المصرى والعربى معا، والسعى السياسى من أطراف بعينها، لصياغة هوية جديدة لبلدنا ومنطقتنا كلها، ففى وقت توفيق الحكيم بدأت فى مصر أول أحداث ما بات يسمى الفتنة الطائفية، بين مسلميها

ومسيحيها، وسرت المشاعر الطائفية المتعصبة فى جنبات المجتمع، لتهدد وحدته التاريخية، بينما كانت سلطة الرئيس السادات الجديدة - حينئذ - تسعى بكل سبلها لإعادة تشكيل الهوية المصرية، وفصلها عن سياقها العربى!! أما فى وقت أسامة أنور عكاشة، فقد أضيفت للفتنة الطائفية السارية بين عنصرى المصريين، فتن أخرى راحت تتسارع وتتسع، واتخذت أشكالا مذهبية تقسم المسلمين أنفسهم بين سنة وشيعة، وأخرى عرقية، وثالثة لغوية ثقافية، بينما تجرى فى الوقت نفسه محاولات دؤوبة بالسلاح والسياسة والإعلام من جانب "الغزاة الأمريكيين" وحلفائهم الإسرائيليين، لتمزيق شعوب ودول المنطقة بين هويات مختلفة متصارعة، بعد القضاء على الهوية الواحدة التى تجمعهم، أى تلك العروبة المغدورة!!

أما عن المفارقة، فهى أن يتراجع كل من »الحكيم وعكاشة" عن كل - أو معظم - ما بنيا عليه خلال سنوات طويلة فكرهما وإنتاجهما، الذى عرفا به بين الناس، بل وأن يشرعا فى الهجوم عليه مستخدمين اللغة نفسها تقريبا، المتخمة بالتعبيرات الأدبية والإنشائية، فى معالجة قضايا هى بطبيعتها ذات مضمون سياسى وتاريخى واجتماعى وثقافى معقد!! وعند النظر لبعض تفاصيل الهجوم على العووبة والانتماء القومى لمصر، نجد غياب العلوم المتخصصة والرؤية التحليلية التاريخية، ورغم أنهم يقرون بوجود عناصر تؤكد وجود ثقافة عربية سائدة، فهناك بلا شك وحدة ثقافية متحققة بالفعل، وأهم تجلياتها فى وحدة اللغة واللسان والإبداعين الأدبى والفنى، كما تتشابه أنماط السلوك وبعض قوالب التفكير "تتشابه ولا تتطابق" . . وهذا ما تقوله أبرز نظريات الوجود القومى العالمية، التى

ترى نفس تلك العناصر كافية لإثبات هذا الوجود المشترك لمجموعة من الشعوب أو الدول . . أما قولهم بأن مقومات الدولة الواحدة أو الموحدة غير موجودة وسمات الوطن الواحد غير متوفرة فى العالم العربى، فإن غياب تلك الدولة أو الوطن الواحد، إنما يعكس غيابا لإرادة سياسية وعوامل ذاتية ولا يعنى غيابها غياب مقومات الأمة أو القومية الواحدة التى لا يتوقف وجودها على تلك الإرادة وهذه العوامل.

. . . .

. . . .

وهناك تفسير - يضيف كثيرا لما سبق - ومن وجهة نظر الأستاذ هيكل فإن مصر باعتبارها أقدم دولة فى التاريخ، فإن ذلك يخلق خلطا بين مفهوم الدولة ومفهوم الأمة فيها، فضلا عن أن الفكر والفعل السياسى المصرى أخذا قضية انتماء مصر العربى أمرا مفروغا منه، وبالتالى فإن أحدا لم يبذل جهدا كافيا لتأصيله، وأن وحدة الأمن العربى ليست واضحة فى اليقين المصرى بالدرجة الواجبة، وكذلك وحدة المصلحة العربية، ومن محصلة ذلك كله أن الفكرة العربية فى مصر تكون معرضة ومكشوفة لدعاوى من نوع "مصر وحدها" أو "مصر أولا" وما شابه ذلك، وكلها دعاوى يسهل ترويجها والارتكان عليها بنجاح - فى بعض الأحيان - بقصد تعطيل التفاعلات الضرورية بين الشعب على ضفتى النهر، وبين الأمة من المحيط إلى الخليج!!

وفى حقيقة الأمر فإن هذه الدعاوى تتجاهل تماما أحكام الجغرافية والتاريخ على أى شعب أو أمة، فهى التى تحدد لها انتماءها فلا يعود لعبة سياسية أو نزوة أهواء . . وتحدد لها ضرورات أمنها فلا تعود حائرة

بين الآفاق لا تعرف أين تحذر وأين تطمئن.. وتحدد لها ضرورات مصالحها القومية، فلا تعود هذه المصالح معلقة بالمصادفات أو بالمغامرات، أو مختلطة بمطامع فئات أو جماعات أو طبقات تسود يوما فى غفلة زمان، فإذا هى تهدم فى لحظات محصلة قرون ونضال أجيال.

....

ومن أوراق السبعينيات انحراف الإرادة العربية عن حدود تاريخها بعد أن أصبح التصاعد المستمر لمنحنى التمزق والتشتت متصلا بالمواقف التى قيدت قدرة الأمة العربية على استثمار انتصارها السياسى والعسكرى بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحين أدرك العالم بالمعرفة مواقع القوة الحقيقية داخل هذه الأمة حين جندت إمكانياتها وقدراتها تلقائيا مع بدايات الساعات الأولى للسادس من أكتوبر!! وفى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل - وضمن أهداف ونوايا وطموحات - تبحث عن الثغرات والقيام بمراجعة شاملة للوضع فى الشرق الأوسط.. كانت هناك - داخل الجغرافية العربية - تبدلات واسعة ومفاجئة تعلن عن نفسها وكأنها عملية تصفية حسابات مع الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى.. وكانت هناك تيارات مساعدة ترسم الخطوط العريضة لتلك المتغيرات التى توحى بأن المشكلة التى بدأت ملامحها تتشكل هى:

"الفراغ السياسى" والتى سحبت ورائها فيما بعد سنوات (اللاقرار) والعجز عن تحديد مسار الحركة العربية فى مواجهة ما كان واضحا أنه طرح للخيارات السياسية العريضة ويستدعى تنسيق عربى لإدارة فنون التفاوض حول عملية السلام ولكن ما حدث لا يختلف كثيرا عن الغياب الرسمى للوجود العربى بالرأى والفعل داخل الحركة الدبلوماسية العالمية

أى غياب (الالتقاء العربى) حول موقف محدد. .

واستمرت سنوات (اللاقرار) تثير الاستفسارات حول ملكية القرار العربى أى من يملكه وما هى المصالح التى تحدد رؤيته الشاملة وما هى حدود مسئوليته وسلطات تأثيرة ومن الطبيعى أن تنتهى تلك التساؤلات باليأس عند حدود حالة الجمود السلبى ومستجدات أخرى حول انهيار ملامح التضامن والانتماء العربى مع تنامى دور "الإقليمية المحدودة" . . ومع غياب القرار العربى ـ الواحد والواضح ـ أصبحنا بصفة الجمع العربى تتعثر خطواتنا داخل ساحة الانتظار أو على هوامش الأحداث والدوران حول تسويق الشعارات بالتصريحات الرسمية وأصبح من الميسور أن ندرك بالمشاهدة أن القرار العربى قد دخل مرحله (فك الارتباط) مع حقائق الواقع العربى، وفقد بوصلة التوجيه لتحديد خط سياسى واضح، وتهيأ المناخ للاستقرار على الوضع الجديد القائم ـ التشتت فى الفكر، والسلبية القطرية، وتعارض اتجاهات الرؤى، والاهتمام بالقضايا الفرعية للتعامل مع أزماتنا الداخلية، وهى دعوة لإشعال الحرائق تجاوزت حدود المواقف العربية المتناقضة إلى تفاقم حالة الصراع العربى ـ وانفجار النزاعات العربية!!

وربما تستدعى السطور العودة إلى التساؤل: لماذا تجاوزت الأمة العربية محنة التصدع فى يونيو ١٩٦٧ والرياح معاكسة والصدمة شديدة، ولماذا أصبح تسلسل الأحداث بعد معركة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ مثيرا لموجات متداخلة من علامات الاستفهام والتعجب (؟) والإجابة تختصرها كلمات أديب فرنسا الكبير أندريه مالرو: "ليست المسألة هى النصر العسكرى أو الهزيمة العسكرية، المسألة هى إرادة الأمة، وهذا الذى يبقى

وغيره تكنسه الأيام" .

. . . .

. . . .

وفى هذا كله فإن السنوات التى بدأت مع منتصف السبعينيات - تقريبا - أفرزت العديد من المشاكل. . ولم يكن دور مصر بعيدا عن تأثيرات سلبياتها:

* مشكلة اختيار الأسلوب الملائم لإدارة الصراع العربى - الإسرائيلى وفى ظل أوضاع القوى الدولية الراهنة، وحين كانت المشاعر الوطنية تغلق ملفات التجاوزات العربية، وحين كانت عناصر العمل السياسى والعسكرى مع تدافع الحوادث قادرة على إتمام المهمة التاريخية وهى بلورة ملامح التغيير لمرحلة جديدة تبدأ فى تاريخ الوطن العربى!! إذن كان القرار العربى أو بالتحديد توقيت وصناعة القرار العربى - وأحيانا صياغته - عاملا فعالا فى خلق الأحداث التى قاسينا من سطوة آثارها وانعكاساتها، والأمثلة تشير إلى أنه لم يستطع اجتياز مرحلة الخيارات المتاحة. . وأنه لم يستطع أن يتفاعل مع المستجدات التى طرأت مع نتائج حرب أكتوبر ١٩٧٣ قبل بلورة المواقف التى فقدت غالبا أدنى درجات الوفاق العربى فى الرأى. . وترتيبا على ذلك. . أين كان القرار العربى مع بداية الاتفاق على فك الاشتباك داخل الخيمة التى انتصبت على الكيلو ١٠١ شمال شرق القاهرة - لأن معركة ١٩٧٣ لم تكن مواجهة إقليمية ولكنها كانت امتداد لمواجهة قومية عبر سنوات الصراع العربى الإسرائيلى - لذلك فإن غياب القرار العربى وقتها - جعل السماء مفتوحة أمام تقلبات الطقس العربى و"تجمع" سحب التناقضات. .

* مشكلة فتح الأبواق الإعلامية والرسمية تقذف بالاتهامات وتوزع الأدوار داخل جدول "الخيانة والعمالة" وتدير حرب الكلمات فى صلب تجليات النزعة العاطفية ومن هنا يمكن تقييم القرار العربى المتصل بزيارة الرئيس السادات للقدس وقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر. . والزيارة لم تحقق أهدافها بالسرعة المطلوبة، ولم تكن أقصر الطرق فعالية للتوصل إلى تسوية شاملة، وحتى يمكن تجميد ردود الأفعال العربية الرافضة، وتشجيع المشاركة العربية فيما بعد. . وما حدث كما ترويه مذكرات سايروس فانس - وزير الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت - "بينما لم تنتج حركة السادات الجريئة الاستجابة الفورية والدرامية التى كان يأملها فإنها أثرت بشدة فى المناخ السياسى والتفاوضى. . وكانت مهمة تحويل مبادرة السادات إلى عملية محددة للتفاوض قد وقعت بمعظمها على عاتق الولايات المتحدة، وكانت خطوة السادات الأولى هى أنه دعا الأطراف جميعا منظمة التحرر الفلسطينية والأمم المتحدة إلى الاجتماع فى القاهرة فى منتصف ديسمبر لمؤتمر الشرق الأوسط، وعلى أى حال فقد فشلت حتى الجهود الأمريكية المكثفة فى أن تنتج اهتماما عربيا بهذا الاجتماع ولم يشارك فيه سوى ممثلين أمريكيين ومصريين وإسرائيليين ومراقب من الأمم المتحدة"

. . . .

كان التشاؤم العربى واضحا - من إمكان أن تستجيب إسرائيل لمتطلبات السادات السياسية، وكانت الريبة تزرع القلوب بالشك فى أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تستدرجان مصر إلى سلام منفصل!! ومهما كانت الرؤية فى ذلك الوقت، فإن ما قيل عن كسر الحاجز النفسى

بين مصـر وإسرائيل خلط كل الأوراق وانتقـلت متاريس الحاجـز النفسى لتقـيم دعـائمـهـا بين الـدول العـربيـة ومـصر.. وفـى الخامـس من ديسمبر١٩٧٧، تشكلت الجبهة القوميـة للصمود والتصدى (سوريا وليبيا واليمن الجـنوبى والجزائر ومنظمـة التحرير الفلـسطينية) لمعارضـة موقف السادات.. واتخذت الأقطـار العربية الأخرى مواقف سلبـية، ربما كانت تحاول أن تمتص الصدمة.. وتطورت ردود الفعل العربية إلى قمة الانفعال باتخاذ "قمة بغداد" قرار تجميد مـقعد مصر داخل البيت العربى.. ونقل جامعة الدول العربية إلى تونس!!

....

وكانـت الدبلومـاسية المـصرية تكافـح على عدة جـبهـات من أجل المحافظة على عضوية مصر فى منظمـة الوحدة الإفريقية وفى حركة عدم الانحـيـاز بعـد أن أخرجـت مصـر من الجـامعـة العـربيـة ومن المـؤتمر الإسلامى.. وفى ظل الفراغ السياسى لغـياب دور مصر بدأت التطلعات نحو موقع الزعامة والقيادة الشاغر(!)

* مشكـلة البحث عـن الزعامة (زعـامة قطريـة قيادية) تـتولى إدارة مقدرات الأمة العربية، وفى ظل التـصورات بعزل أو غياب دور مصر.. وكانت سوريـا تسعى بحذر، رغم الاشتـباك السورى فى تعقـيد الموقف اللبنانـى بعد اشتعال الحـرب الأهلية اللبنانـية فى الثالث عشـر من أبريل ١٩٧٥.. وكان الاعتقاد السورى ـ فيمـا أظن ـ أنه بحكم شرعية التاريخ العـربى وعرف "الإرث" فـإن لسوريا الحـق شرعا فـى "الإحلال" وأن تكون "البديل" المقبـول للقيام بدور القيادة فهى الجناح الـشمالى الشرقى للجسد العربى توأم الجناح الغربى للأمة العربية، وبالاعتماد المتبادل بينهما

حققت هذه الأمة عبر التاريخ انتصاراتها وردعها للأطماع الخارجية، وكما إنه لا حرب بدون مصر فإنه لا سلام بدون سوريا والتى تحتفظ بدرجة (الأول مكرر) بعد القاهرة فى إدارة أحداث التاريخ العربى!!

وكانت العراق - أيضا - تسعى إلى ذلك علانية وبخطوات واسعة تستعجل الانتهاء من مراسم "التنصيب" العربى لها.. وكانت مسوغات التعيين لشغل مقعد القيادة متعددة: فالعراق قد حمل لواء الدعوة لتجميد دور مصر داخل جامعة الدول العربية والمقاطعة الدبلوماسية للعلاقات معها، والعراق يتمتع بثروة بترولية كبيرة (ثان دولة عربية بعد المملكة العربية السعودية من حيث حجم الاحتياطى النفطى) وبالإضافة إلى "الوجه البترولى" فالعراق له "الوجه القومى الثورى" ويتبنى المنهج الوحدوى، وعطفا على ذلك ينادى بتعبير "عراق العرب" من حيث وحدة الجغرافية العربية ووحدة المصير والانتماء، أى منهج نضالى يطالب بالكفاح المسلح لتحرير الأراضى العربية وهو منهج يخاطب مشاعر الجماهير العربية!! وراودت أحلام الزعامة فى زمن الفراغ السياسى - العقيد القذافى أيضا!!

ولم يلتفت أحد إلى مخاطر اللعب بحقائق استراتيجية وغياب أو تجميد "دور مصر".. وكان هذا خطأ تداعت منه أخطاء!!

....

وأصبحت الأمة العربية أمام نتائج تنذر بأسوأ العواقب وتنسج بكل انعكاساتها البدايات التمهيدية لسنوات حقبة التردى إلى قاع البركان.. وأصبح الزمن العربى مقياسا لتحقيق مقولة "أوسكار وايلد" بأن الشخصيات وليست المبادئ هى التى تحرك الزمن.. بعد أن تحكمت

المصالح الشخصية والاتجاهات المزاجية واتصالها بالتيارات الخارجية فى رسم حدود الخطوط العريضة للعديد من خطوات تحركاتنا العربية داخل استراتيجية تفتقد أولا - وبتأثير الأسس السابقة - لمقومات المصلحة القومية العربية، حتى قيل أن العالم العربى يخلق أسبابا للتعارض فيما بينه داخليا أكثر مما يخلق أسبابا من أجل الوفاق، وعلى هذا الأساس جرى التعامل مع الأحداث ومع مجموعة القضايا العربية ومشاكلها الفرعية!!

....

....

ومن أوراق السبعينات:

* سياسة الخطوة - خطوة التى انتهجها وقام بتسويق فلسفتها وزير الخارجية الأمريكى الأسبق "هنرى كيسنجر" - بعد انتصار ١٩٧٣ - والتى تقوم على عقد اتفاقيات ثنائية لفصل الأطراف وتقليل مخاطر تجدد القتال وبدء عملية طويلة لبناء ثقة كل طرف فى عملية التفاوض - ومن خلال التفاوض على اتفاقيتى ١٩٧٤ لفض الاشتباك فى سيناء ومرتفعات الجولان، واتفاقية سيناء الثانية فى شهر سبتمبر ١٩٧٥ - وتعتمد تلك السياسة على الادعاء بأن عدم الثقة بين مصر وسوريا وتعنت الراديكاليين العرب والتفكك العربى يحول دون التوصل إلى حل شامل.. (!؟) وهى سياسة كانت تدور حول محور واحد: مواجهة التغيير الذى حدث فى مناخ الشرق الأوسط بعد أن عاد العرب إلى اللجوء للقوة العسكرية والضغط الاقتصادى.. من هنا بدأت (عملية) تغيير الاتجاهات وقطع خطوط الاتصالات داخل معادلة الحركة العربية وتهيئة المناخ لأوهام الحل الأمريكى العادل. .وترسيم علاقة صداقة أمريكية - عربية!! ورغم

غموض المصالح المتبادلة التى تعتمدها الولايات المتحدة لعقد أواصر الود مع العرب فإن سايروس فانس وزير خارجية الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس الأمريكى "جيمى كارتر" قد أزاح قدرا كبيرا من هذا الغموض فى مذكراته والتى تقول "إنه أثناء مراجعتنا للسياسة الخارجية فى منزل كارتر فى "بلينز" اتفقنا على أن الأهمية الحيوية هى لنظم حكم مستقرة معتدلة وموالية للغرب فى الشرق الأوسط ووجود مطال إلى النفط العربى، وأنه لم يكن محلا للسؤال أن حجر الأساس فى سياسة كارتر حيال الشرق الأوسط سيبقى هو التزامنا بأمن إسرائيل" . . واعتمدت السياسة الأمريكية على تقسيم العرب إلى معتدلين وراديكاليين (متطرفون فى رفضهم للرؤية الأمريكية) وعلى الساحة العربية ـ كالمعتاد ـ اختلفت المواقف بين دول عربية تحتفظ بمواقع صداقة أمريكية وترحب بالدور الأمريكى . . ودول ترفض تأسيسا على حقيقة التوجه السياسى للإدارة الأمريكية والتزامها بالأمن الإسرائيلى ! !

. . . .

ومن أوراق السبعينات

* انفجار بركان الثروة العربية يرمى بالكنوز فوق الرمال التى انتصبت فوق رمالها الأعمدة الأسمنتية، وتحول الفائض إلى البنوك الغربية والأمريكية، وتراكمت الأرصدة العربية فى مصارف خارج حدودها . . وانقسم العالم العربى إلى مستويين اثنين تتباعد بينهما مستويات الغنى والفقر وتتباعد بينهما بمسافات أبعد وأعمق "وحدة المشاعر" بمعاناة واحتياجات الآخرين، وأصبحت المأساة "المضحكة" هى البحث عن عملية توافق بين نظريتين: نظرية الأمن العربى . . ونظرية الرخاء

العربى . . وباعتبار ما حدث من الارتفاع الجنونى لأسعار النفط وتضخم الثروة العربية يرجع بالأساس إلى ما حدث يوم السادس من أكتوبر المجيد، وبالضرورة إعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية . . وفى مقابل دول "الثروة" كانت دول أخرى . . وفى المقدمة مصر تستقبل قروضا بمليارات الدولارات، وخدمة ديونها التى كبلت حركة التنمية الاقتصادية حتى المنح والمعونات ـ التى لا ترد ـ جاءت مقيدة الاتجاه نحو مصارف استخداماتها . . كما أن الأزمات الخانقة والانهيارات الاقتصادية والعجز فى ميزانى المدفوعات والتجارى لدول تقع داخل الوطن الكبير العامر بثرواته وإمكانياته المادية و(نقوده) المتراكمة داخل مصارف الغرب ـ أضافت عمقا أبعد لصورة ترسم الخلل داخل المجتمع العربى سياسيا واقتصاديا . . ويتصل ذلك بالعديد من أوجه الحياة . . اجتماعيا وثقافيا . .

. . . .

هناك ظروف وعناصر واعتبارات جاءت إلى الساحة بمناخ مختلف . . ومع تشتت فى الفكر السياسى تحت ضغط الأحداث المتلاحقة المتدافعة فى أعقاب الانتصار العسكرى العربى، وتعثر استمرارية خطوط الاتصال والتشاور حول المستجدات التى طرأت على الساحة العربية بعد تباين المواقف بين مصر وسوريا حول اعتماد قرار وقف إطلاق النار على جبهات القتال المصرية ـ السورية ـ ومباحثات فك الاشتباك، ثم تعارض وتقاطع ما تحمله "أفكار" إدارة الأزمة، وكان لتضارب وتصارع تلك الأفكار والتصورات حول مفاوضات التسوية فى جنيف (١٩٧٣) أن بدأت سفينة التضامن العربى تجنح باتجاه القاع فى بحور الغربة عن الواقع وحقائق المنجزات التى حققتها روح معركة السادس من أكتوبر، وخاصة

بعد الاختراق النفسى والسياسى لزيارة الرئيس السادات للقدس فى ١٩ ـ ٢٠ نوفمبر (١٩٧٧) والتى لم تسفر عن تحولات أساسية فى المواقف الإسرائيلية الثابتة. . ومن الواضح أن تلك البداية كانت مقدمات لانفلات حدة وعصبية العاطفة العربية وهى إحدى صور تدخل العواطف المتحررة من حكمة العقل فى إدارة الحركة العربية!!

وتجلت أزمة العقل العربى، مع أزمة المشروع العربى داخل مرحلة "تفكيك" الأمة وتجميد أطرافها بالاشتباك والتصادم الذى بلغ حد التصفية الدموية فى أقطار عدة، والتهديد بحشد الجيوش على الحدود كما حدث بين (سوريا والأردن) (مصر وليبيا) وإعلان حالة الطوارئ العربية ـ العربية لمراقبة النوايا العدوانية العربية ـ العربية!! ومع أزمة العقل العربى. . فقد اختل ميزان العقل فى تمييز الصحيح من الخطأ، وأصبح العقل العربى يختصم دائما على البديهات والحقائق والمسلمات حين ضاعت من أمامه معالم الإرشاد!!

. . . .

والحاصل أن حقبة السبعينيات شهدت أهم وأخطر السنوات التى ساهمت فى تشكيل مرحلة جديدة تتصدرها بدايات انهيار إطار مشروع النظام العربى بعد انتصار الأمة فى ١٩٧٣ ثم تفكك أطرافها وهزيمة إرادة التضامن ومع بدايات الزحف الأمريكى "المنفرد" لفرض الوصاية على الإقليم العربى. . ومقدمات خلق الحقبة الأمريكية وقبل سنوات من انهيار الكتلة الشيوعية ونهاية الحرب الباردة. . والتبشير بدور أمريكى بناء فى حل أزمة الشرق الأوسط!! ولحقت بهذه التطورات حركة موازية لإعادة ترسيم أو إعادة توصيف للصراع العربى الإسرائيلى عموما، ومع انفلات

غرور القوة والتطرف الإسرائيلى، وخلــق حقائق جديدة حتى إذا لم تكن هذه الحقائق متسقة مع التاريخ!!

وهذه الأوضاع التى خلقتها أوراق السبــعينيات كان لها أثر على دولة ذات دور خاص. . ولم يــكن دور مصر ـ طبــيعته وحــيويته ـ بعــيدا عن انعكاســات هذه الدوامات التى اختــلطت معها الأوراق، وجــعلت الدور القائد فى حــالة غياب ولو مؤقــتا!! وتعطل الاتفاق عــلى (ثوابت) رغم أحكام الجغرافية والتاريخ والانتماء وضرورات الأمن والمصالح القومية. . وبدأ الحوار حول (المتغيرات) التى جاءت إلى الساحة بمناخ مختلف!!

ومن أخطر أوراق السبــعينيات. . جنوح "المزاج" الشخــصى للقيادة المصرية، بعيدا عن الحــقيقة الكبرى بأن دور مصر يستــمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده. . الانتماء إلى أمته العربية، وأن ما صنع قيادة مصر لأمتهــا، هو القبول العربى العام لدورها الذى لا بديل له فى العالم العربى. . وحين انتــهجت مصر خطا وحدها، لم يلق قبولا عــربيا عاما، جــاءت سنوات الخلل فى مــيزان العلاقات العــربية، وتراجع دور مصر عن مكانته كقوة مؤثرة فى ما حوله!!

□□□

دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

الحركة البطيئة فوق جسر المتاعب

"أعرف شيئا واحدا.. هو أنني لا أعرف شيئا"

سقراط

إذا كانت الأمة العــربية تكتشف قدرها فى مصــر . . فإن دور مصر ـ أيضا ـ يستمد أبعاد تأثيره وحركته مما حوله، بالانتماء إلى ما هو أكبر من حدوده . .

وفى حقيــقة الأمر فإن الأزمة العربــية الشاملة التى استــحوذت على عمر السنوات فيما بعد حقبة السبــعينيات وكانت القضايا معلقة والمشاكل تزداد تعقيدا ـ خلقت عوامل سالبة لحركة الدور المصرى وتأثيره فى منطقة تهب عليها رياح عاصفة من النزاعات والمشاحنات وتصادم المواقف!!

. . . .

وأزمة الواقع العربــى ـ مع بداية الثمانينات ـ كشفــت عن أزمة غياب دور مصر (عربــيا) نتيجة رد فعل عــربى (عصبى) بمقاطعــة أو عزل مصر بتجــميد العلاقات الــدبلوماسية مــعها، وحين فــرضت سياسة "مــفترق الطرق" أحكامها على الواقع العربــى بعد أن تعددت وتنوعت وتقاطعت خطوط الإشارات التى تنظم مسار الأحداث العــربية والتى كانت حركتها تدور فوق ساحة ممــتدة من النزاعات والصراعات، والتــشتت فى الرؤية، ومما جرف الأحداث إلى تجاوزات وتحالفــات طحنت الواقع العربى داخل حرب الكلمات!! وكانت أحداث تلك المشاهد الساخنة قد شهدت انفجار المواجهــات والتهديدات بيــن ليبيا والــسودان، وإعلان الرئيس الأمــريكى وقتئذ "ريغان" بأن الولايات المتحدة سوف تسرع بإرسال معدات عسكرية إلى الســودان ومصــر للرد على مــغامــرات التوسع الــليبى . . وأعــلنت الخارجــية الأمريكــية على لســان المتحــدث باسمهــا " دين فيــشر " بأن الولايات المتحدة ستوفد قريبا فريقا من المستشارين العسكريين الأمريكيين إلى السودان لتدريب الجيش السودانى على استخدام الأسلحة الأمريكية،

وأن الحكومة الأمريكية ستسارع بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية للسودان قيمتها ٢٠٠ مليون دولار لمواجهة التهديدات الليبية!!

وفى القاهرة أعلن جعفر النميرى ـ الرئيس السودانى فى ذلك الوقت ـ وأثناء تواجده بعد المشاركة فى تشييع جنازة الرئيس السادات: بأنه يتوقع أن تهاجم القوات الليبية بلاده فى أى لحظة وأن تحاول غزوها بمساندة من موسكو والدول الشيوعية.. وأن الليبيين يقصفون قرى سودانية قرب الحدود مع تشاد بمعدل ٣ أو ٤ مرات يوميا خلال الشهرين الماضيين.. وأن القذافى يقود حملة اقتصادية ضد السودان ويرسل عملاء لشراء كميات هائلة من السلع الاستهلاكية وإغراقها فى النيل لخلق أزمة فى المواد الغذائية.. وأضاف فى حديث لوكالة "أسوشيتدبرس" أن أمريكا ستقف بكل حزم مع السودان!!

وبعد شهور معدودة من تصريح النميرى بدأت رائحة صفقة "الفلاشا" تنتشر وتثير الاشمئزاز لدى المواطن العربى وتصيب المجتمع العربى بصدمات التساؤلات التى تحمل مئات الاستفهامات وأيضا كان الدور الأمريكى فى إتمام وتنفيذ بنود المقايضة واضحا جليا لا تستره حتى التصريحات.. وحين كانت السفارة الأمريكية فى الخرطوم هى مقر غرفة العمليات والتنسيق لنقل يهود الحبشة إلى إسرائيل!!

والواقعة، أو المشهد الساخن كان كافيا لرسم صورة كاشفة للواقع العربى، والعلاقات العربية ، والتدخلات الأمريكية، والتحركات الإسرائيلية!! وكان تداعى المشاهد مثيرا للدهشة والسخرية معا حين تبدلت العلاقات بين الأقطار العربية من صورة إلى أخرى مشحونة بالتوتر العسكرى.. وحدث هذا بين مصر والسودان.. ليبيا ـ مصر.. الأردن ـ

سوريا . . العراق ـ الأردن . . المغرب ـ الجزائر ! !

. . . .

. . . .

ورغم "تراجيديا" الخلافات العربية التى شهدتها المنطقة، فقد كان الوعى الجماعى حاضرا بضرورة تصحيح الخلل . . وحين عادت العقول لتقرأ مجموعة الحقائق التالية :

* أولا : أنه لا يمكن عزل (مصر) حين تصبح القضية التى تهدد الوجود العربى ومصير حاضره ومستقبله هى قضية "الأمن القومى العربى" . . ولا يمكن أيضا تجميد أو تحييد دور مصر فى مواجهة المتغيرات التى فرضت نفسها على الخريطة السياسية والاقتصادية والعسكرية العربية . . ولا يمكن ثالثا أن تستمر موجة "المجاملات الدبلوماسية" بين مصر وبقية الدول العربية نوعا من الاعتراف بحقيقة دور مصر وثقلها العربى والعالمى ودورها فى تشكيل تاريخ أمتها . . ونوعا من الرغبة "المتوجسة" والحذرة فى إعادة الدماء داخل عروق الجسد العربى بعد المقاطعة الدبلوماسية . . وضرورة إعادة صياغة القرارات التى تخلق البدايات الصحيحة للحركة العربية المؤثرة بعد سنوات من عدم وضوح الرؤية العربية فى التعامل مع معطيات النتائج المتراكمة نتيجة الحركة العربية المفقودة . .

* ثانيا : أن دور مصر القيادى ليس حقا أعطى بالتراضى والتوافق العربى فقط . . ولكنه من ثوابت حقائق التاريخ العربى عبر قرون كانت فيها الجغرافية المصرية نقطة التقاء آمال وأحلام وتطلعات أمتها، وكان

محيطها البرى ووجودها السيـاسى والعسكرى درعا لوطنها العربى، وأن الواقع والمنطق والواجب يفرض تصويب الميزان الاستراتيجى العربى بعودة مصر التى تشكل ركنا أساسيا فيه . .

* ثالثا: أن غيـاب دور مصر يرتبط أيضا وربما كان السـبب الرئيسى فى سيطرة سنوات اللامبالاة والتشتت وانحسار مظاهر التضامن العربى . . وبعد أن خيـمت على الإقليم العـربى حقبة الشلـل الإرادى التى اهتزت معها وسقطت معايير ومبادئ . .

. . . .

وكان ما يحدث فى بر مصر ـ بعد تولى الرئيس محمد حسنى مبارك مسئولية القـيادة ـ يصدر إشارات واضحة لتمهيـد الطرق لعودة ما انقطع ورأب الصـدع . . كما كـانت الأمة العـربية ـ وكـان ذلك واضحـا على مسـتوى الشـارع العربى ـ تتـابع باهتـمام بالغ خـطوات الرئيس مـبارك وبمشاعر تنسجها الآمال الطموحة حول قيادة دور مصر . .

كان الحديث عاما ومتواصلا عن الدور المصرى . .

ولكن . .

ومع عودة العلاقات العربية مع مصـر . . وعودة جامعة الدول العربية إلى مقرها الدائم فى القاهرة . . لم يكن المناخ مهيأ لحركة الدور المصرى، فقد كانت الساحة العربية ـ لا تزال ـ موصومة ومدانة ومجرحة، وبسبب تعـدد الآراء والمواقـف، وتداخل الأهواء، وتـعارض المـصالـح . . ومن المفارقات المؤسـفة ـ تطبيقا لما تقدم جـميعه ـ أن الرؤية العربيـة للعلاقات الدولية كـانت تستمـد المرجع الذى تستند إلـيه من منهج فكرى سـياسى

"خارجى" لذلك اختلطت الأمور، وتداخلت الانقسامات العربية مع تعقيدات صراعات مذهبية وفكرية.. وأصبحت التفسيرات المتعددة للمواقف تتأرجح بين الظن واليقين!!

....

وكان الوعى المفقود فوق جسر المتاعب قد صادر كل المحاولات التى يمكن أن تبحث عن (المجهول) وراء انفجارات الأحداث التى تتابعت بصورة تثير التساؤلات بعد أن توزعت الاتهامات بين الأسباب والدوافع.. وبقيت الدائرة تدور وتلف بمن داخلها، وتروسها تتآكل وهى تطحن مشاعر الرغبة فى استكشاف حقيقة ما يجرى ويحدث!! ورغم كل ذلك لا نعتقد أن الوعى كان عاجزا عن إدراك الحقائق خاصة أن تلك الحقائق لم تكن بحاجة إلى كشف المستور أو ترجمة مؤشراتها فقد كانت أمامنا أبجديات مقروءة ومسموعة!!

كانت الساحة العربية فى بداية حقبة الثمانينات تستقبل مقدمات الغزو الفكرى الثقافى، واستباحة العقل العربى.. وخطورة الغزو الثقافى أو الهيمنة الثقافية يمكن الإشارة إلى بعض جزئياتها من خلال رؤية خبير فى شئون العالم الثالث هو "سيرج لاتوش" والتى تضمنها كتابه (تغريب العالم).. يقول "لاتوش": إن تغريب العالم الثالث (ونحن فى القلب منه) هو أولا عملية محو للثقافة وتدمير بدون استثناء للبنيات الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التقليدية.. إن هذا الذى يعرض على سكان العالم الثالث لكى يحل محل هويتهم الثقافية الضائعة إنما يتضمن صنع شخصية وطنية عابثة ذات انتماء خداع إلى مجتمع عالمى (هو الغرب) أى أن هذا الفيض المتدفق لا يمكنه إلا أن يشكل رغبات المستقبلين، وأنماط سلوكهم

وعقلياتهم، وأساليب حياتهم، وبالتالى فإن ضياع الهوية الثقافية يساهم بدوره فى عدم استقرار الشخصية الوطنية سياسيا واقتصاديا. . "

ويتصل بذلك أيضا ـ ونقصد اختراق الشارع العربى ـ البحوث المشتركة والممولة من جهات أجنبية دون دراسة واعية تحيط بمضمون وأهداف تلك البحوث وخاصة بعد تعدد المؤسسات الأجنبية الغربية التى تقدم المنح والتمويل لإجراء البحوث الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تحت دعوى البحث العلمى والاحتكاك الثقافى مع الآخر، والاستفادة من الخبرات. . وهى فى حقيقة الأمر محاولات جادة لاكتشاف مناطق الاختراق وتمرير الأفكار. . وتتبع مواقع التشققات داخل الساحة العربية، ليس على أساس عرض الخبرة والحلول الأكاديمية، ولكن على أساس متطلبات التقارير التى تخدم أهدافها المشبوهة!!

واتسعت مساحة الاختراق ـ والحديث لا يزال متصلا بالاختراق الأجنبى ـ وكما يقول المفكر الإسلامى الأستاذ فهمى هويدى "الاختراق الذى لا يعد التجنيد هو صيغته الوحيدة وإنما قد يتم أيضا من خلال "الانحياز التطوعى" الذى يلقى ترحيبا ودعما معنويا من القوى الخارجية، ونحن نعرف ـ والكلمات للأستاذ فهمى هويدى ـ نماذج من البشر تتعبد بالغرب ـ مثلا ـ دون أن تكون مجندة أو مأجورة، ولدينا قرائن عدة على دور الأصابع الأجنبية فى الحملة على الإسلام بوجه أخص، لكن القرائن ترتفع إلى مستوى الأدلة فى صدد التدخل الأجنبى لإذكاء العصبيات الدينية والعرقية عن طريق اختراق الأقليات وغوايتها، والأمر شديد الوضوح فى المساندة الفرنسية للبربر فى الجزائر أو التأييد الغربى للمتمردين فى جنوب السودان والدور الأوروبى ـ الفرنسى خاصة

ـ الداعم للموازنة فى لبنان . . "

. . . .

•

. . . .

وكانت التطلعات التى تحيط بحركة الدور المصرى المرتقب فى هذه المرحلة، ومع بداية ولاية القيادة المصرية الجديدة (بداية عهد الرئيس السابق محمد حسنى مبارك . . وفى الحقيقة كانت بداية تحمل قدرا كبيرا من مشاعر التفاؤل) تتجاوز كثيرا حدود التعقيدات التى فرضت نفسها داخل دوامة الأحوال العربية وبصفة الجمع . . كانت الأمة منهكة أو مترهلة، وخطواتها متعثرة حينا أو مقيدة أحيانا على جسر المتاعب . . وكانت الشواهد ترسم صورة "الشلل الإرادى" للقدرات والإمكانيات . . والظنون والشكوك تطيح بكل شىء!!

. . . .

* مثلا . . كانت مأساة الحرب اللبنانية ـ والتى استمرت أكثر من خمسة عشر عاما بآثارها وجروحها ـ لا تزال تقذف بألسنة اللهب فى كل اتجاه . . ثم بدأ الاجتياح الإسرائيلى الشامل لدولة عربية (لبنان) ١٩٨٢ ومع عجز الرؤية العربية عن تتبع جولات المبعوث الأمريكى للشرق الأوسط "فيليب حبيب" ـ وقتئذ ـ والرفض العربى لأية مؤشرات سوء الظن قد تحيط بالتنسيق الأمريكى ـ الإسرائيلى . . ثم كانت مفاجأة العلم بالضوء الأخضر لقرار إسرائيل باجتياح الأراضى العربية اللبنانية . . وبعد الهجوم الإسرائيلى بثلاث سنوات كشف "بريان أوركهارت" السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة بأن الحكومة الإسرائيلية رفضت اقتراحا دوليا قبل اجتياح لبنان بعدة أشهر يتم التوصل من خلاله إلى اتفاق حول

الترتيبات الأمـنية بين كل من لبنان وإسرائيل. . وأنه اجـتمع مع كل من "مناحـيم بيجـن" رئيس وزراء إسرائـيل، وأريل شارون وزير الـدفاع - وقتئذ - فى شهر فبراير ١٩٨٢ أى قبـل أربعة أشهر من الغزو فى محاولة منه لإقناع الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على الترتيبات الأمنية على الحدود المشتركـة بشكل تكفله قـوات الطوارئ الدولية الموجودة فـى لبنان ولكن الحكومة الإسـرائيلية رفـضت هذا الاقتراح رفـضا قاطعا. . وأن مـنظمة التحرير الفلسطينية لم تكن مسئولة عن أى حادث أو عملية ضد إسرائيل طوال الفترة الممتدة من يوليه ١٩٨١ وحتى الاجتياح الإسرائيلى للأراضى اللبنانيـة فى يونيه ١٩٨٢!!" أى أن خطة الغزو كـانت فى طور الإعداد والتنسيـق. . ولكن الفكر العربى كـان قائما على أن الظـنون من أبغض الحلال، وإثما يتنافى مع حسن النوايا!!

. . . .

※ ومثلا. . كانت الحرب الإيرانية - العـراقية فى بداياتها. . وبالطبع لـم تكن قـضية الحدود هى كـلمة السر "الضـائعة" داخل ذلك اللـهيب المستـعر الذى امتد من حـدود البلدين إلى قلب الـعاصمتيـن، واستنزف الطاقات البـشرية والمادية. . ولـم تكن "استـراتيجية العبـور" إلى الإقليم العربى بعيدة عـن المواجهات الدموية. . العبور إلى جغرافـية ممتدة كانت أحلام "شاه إيران" قد رسمت بالإشـارة بعض حدودها حين أجاب عن تساؤل يتعرض لمستقبل إيران بعد عشرين عاما هى العمر الافتراضى لآبار النفط. وقتـها كانت الأطماع تنتـصب فوق اتجاه إشارته التى عـبرت مياه الخليج بالقول: "بالعكس هناك مخـزون لمدة تزيد عن ثمانين عاما. .؟" وبعد الانـتقال الدرامى لـلسلطة من "الـشاه" إلى "الإمام" فـإن ملامح

التغير أصابت "مضمون" الهدف أى الانتقال من مرحلة الأطماع الجغرافية والثروات الطبيعية إلى مرحلة تصدير أفكار الثورة الإيرانية وفرض "نمط "*سياسى على الساحة العربية!!

ورغم أن القضية تتصل بمصير الأمن القومى العربى، فإن حقبة الانسحاب إلى داخل الذات القطرية العربية جعلت الحديث عن دور الجامعة العربية والتضامن العربى مجرد كلمات فقدت ظلها، واختلطت كل الحسابات داخل المعادلة العربية رغم وضوح الرؤية فوق الحدود الشرقية العربية!! . . وحين وقف المجتمع الدولى عاجزا أو راغبا عن وضع حد لتلك المأساة، فقد كانت هناك أولا مسئولية عربية قد اختبأت خلف مصالح خاصة!!

وأمام "الفرجة" العربية لمشاهد الحرب ـ المأساة. . وغياب التحرك العربى، فإن تطورات الحرب ارتبطت ببدايات التدخل السريع من القوى الخارجية فى مياه الخليج، ومظاهر الاستقطاب لقدرات وإمكانيات الدول العربية التى تطل على شواطئه!!ودعوة الحلفاء لتأييد التحرك الأمريكى بالمزيد من القطع البحرية العسكرية، وكل ذلك كان يتعدى حجم برنامج رفع العلم الأمريكى على السفن الكويتية أو مراقبة صواريخ " شط ـ بحر " الصينية (السيلكوورم) أو مجابهة التهديدات الإيرانية ـ قبل التعرض لقصف سفن النفط ـ على المدخل المؤدى للخليج بعرض (٥٠ ميلا). . ولكن الأساس أن تبدأ تجربة إحدى مراحل الصيغة الجديدة (وهى ترسم الخطوط العامة للاستراتيجية العسكرية) ونعنى بها فرض سياسة الهيمنة الأمريكية على منطقة الخليج العربى، وهى تتصل باستراتيجية الإعداد للقوة التى تسمى (السنتكوم) CenTcom أو القيادة الأمريكية الموحدة و

ترددت الأخبار حول إعداد الولايات المتحدة لتجنيد قوة قوامها (٦٠٠ ألف) جندى أمريكى للدفاع عن منطقة الخليج وجنوب شرق آسيا، ورصدت المبالغ، ووضعت الخرائط والمخططات التى تضمن الدفاع عن منطقة النفوذ، وأن تكون قوات السنتكوم الوريث الشرعى لقوات التحرك السريع التى أنشئت عام ١٩٨٠ فى أعقاب سقوط الشاه، وقد أنفقت الولايات المتحدة ١٤ مليار دولار حتى عام ١٩٨٨ لتكون السنتاكوم جاهزة للتحرك، وباعتباره أكبر مشروع عسكرى تقوم به أمريكا منذ خروجها من حرب فيتنام، وكان من الضرورى الحصول على قواعد لقوات السنتكوم فى عدد من المطارات والموانى وأن تكون تلك القوات الرديف الآخر لحلف الناتو، وهدفها إحكام الطوق حول الاتحاد السوفييتى من الجهة الجنوبية (والتحرك كان قبل الزمن الخاص بانهيار الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة) وحددت المؤسسة العسكرية الأمريكية قوس اهتماماتها بتلك المنطقة التى تشهد أحداثا عميقة الأثر (من الصراعات العربية ـ الإسرائيلية، أزمات النفط، التيارات الإسلامية، الحرب العراقية ـ الإيرانية) وعوامل الانفجار كلها ـ كما هو واضح ـ ترتبط بقلب وأطراف الساحة العربية..

....

* ومثلا.. ومع اشتعال نيران الحرب العراقية الإيرانية.. وانهيار لبنان تحت القصف العشوائى للحرب الأهلية.. كانت الولايات المتحدة فى عهد الرئيس الأمريكى الأسبق ريغان ـ تحشد الأسطول السادس لمهاجمة الأراضى الليبية بدعوى دعمها للمنظمات الإرهابية ضد أهداف ومصالح أمريكية فى أوروبا.. وأجرت الإدارة الأمريكية مشاورات مكثفة

مع حلفائها فى أوروبا الغربية للحصول على تأييدهم لعمل عسكرى ضد ليبيا حدث بالفعل فى شهر أبريل ,١٩٨٦. وشعرت الدول العربية بالقلق (فقط) بسبب الاشـتباكات العسكرية وبدأت الدعوات تحـث الجانبين على ممارسة ضبط النفس!!!

والغريب أن حجم الهجوم ونتائـجه لم يكن على المستوى الذى ينال "الرضا" الإسرائيلى حيث جاءت التعقيبات على لسان الجنرال "عاموس ليفادون" ـ قائد سلاح الجو الإسرائيلى ـ فى ذلك الوقت.. بقوله: "إن الغارات الأمريكية ضد ليبيا لم تـكن ناجحة تماما حيث ارتكب الطيارون الأمريكيون أخطاء متعددة وخطيرة بخصوص تحديد أهدافهم، ومن وجهة نظرنا فهى عملـية جيدة".. واعترف بأن خمسة من الطـيارين المشاركين فى العملية هم من الإسرائيليين!!

....

* ومثلا.. فى بدايـة الثمانينيات كانـت الحركة الأمريكية مـتسارعة لعملية تخليق للحقبة الإسرائيلية بالاستعانة بحالة الغيبوبة العربية.. حقبة "تخمة التفوق" الإسرائيلية التى واكبت حقبة الانكماش العربى.. وكان التوجه للخروج باقتصاد الكيان الصـهيونى من الدائرة الشبه مغلقة وإنقاذه من الانهيار باعتباره دعامة أساسية للكيان السياسى والمؤسسة العسكرية.. فقد تم توقيع اتفاقية منطقة الـتجارة الحرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى عـام ١٩٨٥ والتـى تعتبـر الأولى من نـوعهـا بين أمـريكـا وطرف (تعاقدى) ثان.. واستراتيجية التعاون التجارى عبر عنها الرئيس الأمريكى الأسـبق ريغـان ـ فى الاحتـفـال الذى أقيـم بمناسـبة الـتوقـيع ـ بأنهـا تاريخية.. وتكفـل بعدا جديدا للعلاقات الخاصـة بين بلاده وإسرائيل..

وتدل على مدى التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل ورخائها . . "

وفى نفس العام تقريبا تم تشكيل (اللجنة الدولية لتنسيق حرية التجارة مع إسرائيل) فى العاصمة البريطانية وهى تمثل جهازا دوليا يضم مجموعة رجال أعمال مؤيدين لإسرائيل من سبع عشرة دولة بهدف إجبار الشركات غير العربية على انتهاك التزامها بالمقاطعة التجارية لإسرائيل!!! وحقائق التكامل الاستراتيجى بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لا يمكن حصرها داخل بعض النقاط ولكن بإيجاز غير مخل يمكن الالتفات إلى بعض مؤشراتها . . وهى: زيادة قوة التحالف الاستراتيجى ـ مجال حركة الدعم اللامحدود ـ وهو تحالف ورد فى وثيقتين موقعتين فى عام ١٩٨١ من كل من وزير الدفاع الإسرائيلى وقتئذ (شارون) ووزير الدفاع الذى جاء بعده (موشى أرنيز) والاتفاق الثانى فى عام ١٩٨٣ يحدد شروط تنظيم المناورات المشتركة وتخزين المعدات الأمريكية فى إسرائيل، ثم تأتى المشاركة فى مبادرة "الدفاع الأمريكية" دعما لذلك التحالف . . والاستثمار الأمريكى (المرحلة الأولى مليار دولار) فى مشروع الطائرة الإسرائيلية "لا فى" ـ الأسد المجنح ـ . . والتمويل الأمريكى (لعملية بناء غواصات وسفن حربية لصالح سلاح البحرية الإسرائيلية) وصرف مخصصات تمويل هذه النشاطات بشكل تدريجى . . وشهدت سنوات تخليق الحقبة الإسرائيلية منحها حق الدخول فى مناقصات وزارة الدفاع الأمريكية وهو امتياز خاص لإسرائيل وحدها علاوة على إعفائها من سداد ديونها العسكرية القديمة!!

وشهدت الحقبة الإسرائيلية علاقات أخرى تعتمد على الحركة العسكرية الممتدة عبر خطوط اتصال جديدة من المحاولات المشتركة

لصناعة "القنبلة النيوترونية" والاتفـاقيات السرية لإجراء التجارب النووية مع حكومة بريتوريا ـ جنوب إفريقيـا ـ وتصدير ضباط وجنود إسرائيليين سبق لهم الخدمة فى القوات الخاصة لحماية رجال الأعمال والسياسيين فى كل من السلـفادور وفنزويلا والمكسيـك. . وتدريب فرق الأمن الفلبـينية المكلفـة بحراسة ديـكتاتور الفلبـين السابق "فـرديناند ماركـوس" وإعادة تشكيل فرقـة "كاما نيولا" الزائيرية وهى الـكتيبة الأمنية الخاصـة بحماية وحراسـة نظام "موبوتو سـيسكو". . وهى ممارسـة لتصدير الإمكـانيات والقدرات العسكرية، والشعور بالتـفوق وبسط النفوذ داخل مواقع جديدة أصبـحت ترى مع العالـم انفراد إسرائيـل داخل منطقة الـشرق الأوسط بديناميكية الحركة السياسية والعسكرية.

. . . .

وفى ظل هذا المـناخ من حقـبة (الإنزواء للفـعل العربـى والانطلاق للحـركة الإسـرائيلـية) كان مـن الطبـيعى أن تنـطلق أيضـا المسـاومات الإسرائيلية التى تـعترض انعقاد مؤتمر "الصيغـة" الدولية لاحلال السلام العادل، وأصبـح الإقليم العربى وعلى امـتداد حقبة الـثمانينيات منطقة استقصاء وجولات متكررة لمبعوثى الرئاسة الأمريكية وقد تولى "ريتشارد ميـرفى" النصـيب الأوفر من تـلك الجولات ليـجدد اهتـمامات أمـريكا بإحلال السلام فيـها، ولم تسفر تلك الجولات عن نتيـجة واحدة محددة أى بدون جدوى لاسيما وأن الإدارة الأمريكية تعلم كل شىء عن الموقفين العربى والإسـرائيلى، ورغم ذلك كانـت لغة الجولات تحذر مـن إضاعة الفرصة المتاحـة لانعقاد المؤتمر الدولى وترك الباب مفتوحـا أمام ما يسمى (مبادرات جديدة). . وتشجيع المباحثات (ذات الطبيعة الاستطلاعية) مثل

مباحـثات شمعون بريـز رئيس وزراء إسرائيل فى "إيفـران" بالمغرب مع الملك الحســن الثانى، ومع كل مــبادرة نجد تلمـيحات أمريكـية لمنح دول المنطقة مـعونات اقتصادية كـبيرة!! دون وعى لأهمية عنـصر الزمن الذى كان بطبيعة الحال فى صالح الحركة الإسـرائيلية لبسط إجراءات تغيير وجه الجغرافية الفلسطينية المحتلة!!

. . . .

. . . .

وجسر المتاعب العربـية والحركة البطيئة المتثاقلة من فـوقه كان متصلا حتى العمق الإفريقى حيث شهد التـعاون العربى ـ الإفريقى فتورا مقطوع الصلة بأية تنظيمـات تعمل على استمرارية التنسيق وتـدفع حركة التعاون إلى مجالات أوثق خصوصا فى ظل الظـروف التى خلقتها تلك السنوات من تاريخ الأمة العربـية، ومن المؤكد كان لتراجع مصـر (أو تجميد دورها كما تردد من تعبيرات وقتئذ) تـأثيرا كبيرا على تراجع الحماس الذى رافق عقد القمة العربية الإفريقيـة الأولى والوحيدة فى القاهرة فى شهر مارس ١٩٧٧ ومن بين قـرارات هذه القمة إقـامة عدة أجهزة تـعقد اجتـماعات دورية منـتظمة، وهى مـؤتمر القمـة كل ثلاث سنوات، والمـؤتمر الوزارى الإفريقى العـربى كل ثمانية عشر شـهرا، واللجنة الدائمة تنعـقد مرة كل ستة شهور بالإضافة إلى لجنة التنسـيق المكونة من رئيس المجموعتين ومن الأمـينين العـامين، ومـجمـوعات العـمل المتخـصصـة ولجنة الوسـاطة والتحكيم. . ثم غابت القمة العربيـة الإفريقية أكثر من ٣٢ عاما، وضاع التنسيق، وتصدعت أو ترهلت العلاقات العـربية الإفريقية، وكان الغياب المصرى عن دائـرته الاستراتيـجية "إفريقـيا" مثيرا لـعلامات الاستـفهام

والتعجب معا، وفى مقابل الاختراق الإسرائيلى لإفريقيا!!

. . . .

. . . .

وفى نفس الوقت.. ورغم حالة التراجع والانكماش عربيا على مستوى القضية العربية الأولى (فلسطين) أو على مستوى العمق الاستراتيجى الإفريقى.. أو حتى على مستوى "الغفلة" التى أصابت الأمة تجاه أزمات وقضايا وأحداث ساخنة تناثرت على الساحة العربية.. كانت تلك "المفارقة" حين شغلت مشكلة أفغانستان منذ التدخل السوفيتى عام ١٩٧٩ ـ حيزا هاما من الاهتمامات العربية وارتفعت صيحات الحماس للدفاع عن المجاهدين الأفغان (بعض الأقطار العربية وبموجب اتجاه موقفها كانت تطلق عليهم المعارضة الأفغانية) وتم تجنيد مساحة عريضة من الإعلام العربى لتوجيه الدعوات للتبرعات المادية والانخراط فى صفوف المقاتلين للجهاد والتطوع بالقتال، وحازت قضية أفغانستان على قدر هائل من حركة الفعل العربى وانزوت بجانبها القضية العربية الفلسطينية والمقدسات الإسلامية المحتلة.. والواضح أن الانحياز وتبنى المشكلة الأفغانية كان بدافع التجاوب مع الموقف الأمريكى فلم يكن الصراع حول "كابول" سوى مواجهة عقائدية بين الوجود الشيوعى والرفض الأمريكى لتوسع السوفييت لنفوذهم داخل مواقع جديدة، فمنذ انقلاب الدولة الذى قاده الجنرال محمد داود ابن عم الملك محمد ظاهر شاه بمساعدة الشيوعيين تم تثبيت نفوذهم مع بداية حكم الرئيس "كارمال" وتولى حزب الشعب الشيوعى السلطة الحاكمة وانفراد "نجيب الله" بالقيادة ثم التزام الاتحاد السوفيتى بالدعم العسكرى للحكومة

الأفغانية ودعم الولايات المتحدة الأمريكية للمعارضة الأفغانية "الإسلامية" والقضية تندرج تحت أسس صراع الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن ومواجهة كل منهم لتمدد نفوذ الآخر!!

وبالضرورة فإن الواقع العربى وفى تلك السنوات قد انتقلت آثاره الجانبية إلى داخل هيكل جامعة الدول العربية وقيدت حتى الرغبة الصادقة فى عقد مؤتمرات القمة فى كثير من الأحيان، وبالاعتماد على مبررات تقول "الوقت غير مناسب" وفى زمن كانت أيامه وشهوره وسنواته شاهد إثبات على مآسى التنافر لعدم وضوح الرؤية للتوازن بين الأهداف القومية العليا، والأهداف الوطنية ـ القطرية ـ ورغم ذلك فإن الرغبة فى إنهاء حالة الركود السياسى ورسم استراتيجية عربية محددة الأهداف ـ كانت تصطدم باصطلاح "الوقت غير مناسب" لعقد قمة عربية تبحث فى مشكلة فتح الجسور لتنقية المناخ العربى وتحقيق قدرا من التفاهم حول مجمل القضايا.. وارتفع شعار "غريب" يقول بتطبيع العلاقات العربية أى تطبيع الوفاق والإخاء العربى، وحين تخثرت رواسب أحقاد وتجذرت تفرعات المشاكل.. ومع (تجليد) دور جامعة الدول العربية، وتفشى ظاهرة (الوقت غير مناسب) إنقسم الموقف العربى العام وانشطر إلى شظايا تتصادم مع بعضها البعض!!

....

ومع حالة التنافر والتشتت العربى كانت هناك حالة غريبة من الحرص على تتبع خطوات خارجية تتولى بالوكالة البحث عن حل لمشاكلنا وقضايانا.. وكان الالتزام صريحا بمبدأ (واجب اللياقة) وبمعنى المحافظة على واجب اللياقة مع القوى التى تدير أوراق اللعبة كلها ـ تأسيسا على

مبدأ يقول أن ٩٩٪ من أوراق حل قضيتنا المحورية فى يد الولايات المتحدة الأمريكية وحيث أن ٩٩٪ من مشاكلنا وقضايانا الفرعية تتصل بالقضية الفلسطينية قضية الشرق الأوسط أو المشكلة الشرق أوسطية كما يطلق عليها ـ فإن هذا يعنى أن همومنا (كلها) رهن حركة الآخرين(!) وهناك من يرى أن جانبا من واجب اللياقة يفرض تقدير المصداقية فى سياسات ومواقف وحتى توجهات الولايات المتحدة (ولا أساس بالطبع لهذه المصداقية)، فإن الجانب الآخر يتضمن تفسيرا أخلاقيا للتبعية المطلقة!!

المهم.. أن مبدأ واجب اللياقة ـ المشار إليه ـ لا يختلف كثيرا عن مفهوم واجب اللياقة من خلال قصة الرئيس الأمريكى "كالفن كوليدج" الذى رأس أمريكا بين عامى ١٩٢٣ ـ ١٩٢٩ ومجموعة أصدقائه حين فكر فى توجيه الدعوة إليهم لتناول الطعام معه فى البيت الأبيض، ونظرا لازدحام جدول مواعيده فقد تقرر أن يأتى الأصدقاء القدامى لتناول طعام الإفطار.. وقرر الأصدقاء أن من واجب اللياقة أن يتبعوا الرئيس فيما يفعل.. وهكذا عندما تناول الرئيس قطعة من "التوست" مغطاة بالزبده والمربى فعلوا مثل ما فعل وجرى كل شىء على ما يرام حتى جاء موعد القهوة فقام المشرف على الإفطار بصب القهوة فى كل فنجان، ومد الرئيس يده وأخذ الفنجان والطبق، وفعل الضيوف مثل ما فعل، ثم صب القهوة فى الطبق وتناول قطعة من السكر ووضعها فى الطبق وصب عليه اللبن، وفعل الأصدقاء مثل ما فعل، ثم قام وهو يحمل الطبق وهم كذلك، ثم انحنى الرئيس على الأرض فانحنوا أيضا، ووضع الرئيس الطبق أمام قطته المدللة، فأسقط فى يدهم، ولاذوا بالصمت وحمرة

الإحراج تكسو وجوههم!!

....

....

وكل ما سبق ليس تحديدا (شامل ومتكامل) للمتاعب العربية ومشاكلها وقضاياها، ولا ندعى القدرة على رسم الصورة واضحة المعالم والقسمات فليس الهدف من وراء ذلك إعادة سرد من ذاكرة الأجندة العربية وإنما القصد من وراء المحاولة المتواضعة كان بهدف البحث عن مسببات تلك الحركة البطيئة العاجزة عن العمل والمتابعة وتصحيح المسار.. وقد تكون الصورة "متموجة" الخطوط أو تكون المحاولة ـ جهد فاشل فى تتبع الأحداث فوق جسر المتاعب.. ولكنها أولا وأخيرا محاولة للاقتراب من ملامح الصورة خلال عقد كامل ـ أو يزيد قليلا ـ مثل تلك المحاولة التى فعلها "جرهام سوتر لاند" حين رسم لوحة لتشرشل بالقلم الرصاص ومغطاة بطبقة رقيقة من الطلاء الأبيض فلم تعجب الكثيرين، وعندما أرسل "سوتر لاند" صورة فوتوغرافية من اللوحة إلى "تشرشل" رد عليه برسالة قال فيها "إنها قد تكون جيدة كدراسة للشخصية فقط" أى أن الملامح غير متطابقة وأن ريشة الفنان قد جانبها التوفيق.

والشاهد.. أن التحدى الأكبر أمام الدور المصرى.. أن العبء جسيم، والقضايا متشعبة، ومعقدة، ومتداخلة، وأن المناخ المصاحب لها فرض أجواء من الشكوك والظنون وسوء النوايا.. وأصبح وضوح الرؤية أمرا شاقا، وأن الجهد الضائع فى هذه الحالة يستهلك فى تفكيك "عقد" الخطوط المتقاطعة وحل ألغازها.. وهذه العقد لا تحل ولا تنفرج!!

وكانت الرؤية المصرية تدفع أمامها بمحاولات تنقية الأجواء العربية أولا، ودون ذلك فإن أى جهد للتحرك الجاد، الفاعل والمؤثر، سوف ينتهى بالفشل قبل أن يبدأ، ويصبح رقما جديدا فى دوامة تشتت العلاقات العربية - العربية، وتناقض وأحيانا تصادم مواقفها.. وهى مواقف تحكمها - غالبا - مؤثرات تهب عليها من خارج الحدود!!

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

البحث عن معنى..
من أين نبدأ الحساب..
وإلى أين ننتهى؟

ماذا بقى لى لأقول؟

كارل كراوس
كاتب نمساوى

لا أحد يستطيع أن يحدد بالضبط متى انفتحت أبواب الفوضى الشديدة؟!هل حين تحركت القوات العراقية قبل منتصف ليلة ٢ أغسطس ١٩٩٠ إلى داخل الكويت، وفرغت من احتلالها قبل الفجر؟! أم كانت بداية المرحلة قبل ذلك بسنوات وحين توافرت الأسباب من تفكيك أواصر الأمة التى أصبحت منقسمة الفكر والفعل والدم على نفسها.. ومن حروب أهلية وصراعات داخلية.. وحرب مسلحة دموية مع الجيران.. أو حين توافرت عوامل التدخلات الخارجية وفرض الوصاية السياسية والاقتصادية.. وحين تباعدت المسافات والمواقف بين الدول العربية ورغم تعقيدات القضايا المعلقة فى المنطقة!!وحتى حين سعت دول المشرق والمغرب باتجاه "أحلام الجمع" بعيدا عن "واقع القسمة" بحثت عن صيغة "جهوية" شبه إقليمية فى دوائر مغلقة لتحقيق نوع من التكامل والترابط والتعاون فيما بينها.. وجاءت التنظيمات العربية الإقليمية "الجهوية" أقرب للتوجه باستبدال التعاون العربى بصفة الجمع، بآخر له خصوصية جغرافية أو تجمع أقطاره مصالح وأهداف متقاربة أو عوامل الثراء!!

وهكذا ظهرت التجمعات الثلاثة: مجلس التعاون الخليجى ١٩٨١ ـ تجمع دول الثروة، ويركز على حماية الأمر الواقع فى الخليج ـ ومجلس الاتحاد المغاربى ١٩٨٩ ـ تجمع دول المغرب العربى والذى بدا منذ مولده، أقرب إلى مجرد الرغبة فى وجود صورة تحمل شعار التجمع المغاربى، حتى ولو كان عاجزا منذ البداية عن إدارة الأزمة الوحيدة المثارة لديهم، فى مسألة الصحراء الغربية، والنزاع بين المغرب وقوات البليساريو والجزائر!! وبدا التجمع المغاربى مهموما بأوروبا على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ـ ومجلس التعاون العربى والذى أعلن تأسيسه فى بغداد

١٦ فبراير ١٩٨٩ بين مصر والعراق والأردن واليمن، وحرص الموقعون على اتفاقية التأسيس عل القول بأنه تجمع من أجل كل العرب وليس تكتلا ولا محورا. . بينما الواقع أنه كان يمثل طموحات فردية لم تلبث أن اختلفت فيما بينها وتنازعت وقيل فيما بعد: أن المجلس كان هدفه عزل سوريا وتحييد مصر. . وفشل مجلس التعاون العربى، وتجمد مجلس الاتحاد المغاربى!! وبصرف النظر عن المصير فإن تشكيل هذه المجالس الموازية للمنظمة العربية الأم (جامعة الدول العربية) كشف عن توجه يبتعد عن تفعيل دور الجامعة العربية وباعتبارها تنظيم قومى لمجموعة الدول العربية، ويبتعد عن هموم تعزيز العمل العربى المشترك بصيغة الجمع وترسيخ مفاهيمه. . ورغم ما قيل وقتئذ بأن ميثاق الجامعة العربية فى المادة (٩) يتيح للدول الأعضاء الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق أن تعقد ما تشاء من الاتفاقات لتحقيق هذه الأغراض!! ولكن الاتفاقات الثنائية أو متعددة الأطراف شىء آخر غير التجمعات الجهوية، ومع ظهور نظام عالمى جديد من أهم سماته السعى نحو التجمعات الاقتصادية الكبرى بدءا من الاتحاد الأوروبى وحتى مجموعة دول جنوب شرق آسيا (الآسيان) ومرورا بمجموعة دول (النافتا) فى أمريكا الشمالية. .

. . . .

وواقع الحال أن الأمة العربية وهى تعانى من سنوات التشتت فى الفكر والفعل، كانت على أبواب مرحلة الفوضى الشديدة، وهى تدخل فى نفس الوقت ـ مع غزو العراق للكويت ـ أزمة من أصعب وأخطر أزماتها، وبعد أن صدر القرار رقم ٦٧٨ الذى أعطى لقوات التحالف ذريعة استعمال القوة لحل الأزمة وتحرير الكويت!!

الطريف ـ وربما كان من المفارقات التاريخية ـ أن الأمة العربية وهى تواجه أول حالة سطو مسلح عربى من دولة عربية على دولة عربية أخرى مجاورة لها واتسعت الشقوق والتصدعات بين أركان الوطن الواحد.. كانت بريطانيا وفرنسا (يوم السبت ١/ ١٢/ ١٩٩٠) تحتفلان بافتتاح أول طريق برى يربط القارة الأوروبية وبريطانيا منذ العصر الجليدى، وبالتقاء طرفى النفق الذى يصل بينهما ويمر تحت بحر المانش.. والتقى عامل فرنسى وآخر بريطانى وتصافحا فى نقطة الالتقاء التى تقع على عمق مائة متر تحت سطح البحر.. وفى حين كانت الصحراء العربية الشرقية تستعد لأصوات الرصاص وهدير المدافع!!

وهذه نقطة أردت أن أضيفها بقصد التوضيح..

....

كان العالم العربى وسط هذا كله ينتظر الموقف المصرى من الأزمة، وحين كان اتخاذ موقف محدد وقاطع تجاه التطورات أمرا متعثرا بين الحيرة والارتباك، ومما خلق نوع من التمزق العميق بين رفض الغزو العراقى للكويت، ورفض التدخل العسكرى الأمريكى فى الأزمة.. وإلى جانب التمزق كان العجز عن الحركة والفعل واضحا، بل عن التفكير قبل الفعل.. والأزمة طرحت نفسها كنوع من التحدى للدور المصرى!!

كان العالم العربى يترقب حركة الدور المصرى.. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية بدورها ترى أن دور مصر (بتأثيره المحتمل، وبثقل حجم مصر العربى) هو مكمن الخطر الذى ينبغى حصره أو حصاره أو احتوائه أو استقطاب حركته إلى جانب حركة قوات التحالف.. وكانت القيادة العراقية ـ أيضا ـ وعلى نفس المسار تحاول أن تجد مبررا لاستثمار

الموقف المصرى إلى جانبها أو على الأقل تحييد دور مصر!!

. . . .

وكان دور مصر فى هذه الأزمة مجللا بقدر كبير من الالتباس، وقدر كبير من اللغط حوله. . وتشير الوثائق إلى أن تقدير الموقف الذى تم إعداده للرئيس مبارك ـ كان يضع فى الاعتبار التدخل العسكرى الأمريكى المحتمل، والتدخل الإسرائيلى، والتدخل الإيرانى فى الأزمة. . وأن القاهرة مطالبة بحصر نطاق الأزمة قدر ما تستطيع حتى بإعطاء الانسحاب العراقى الحتمى غطاء دبلوماسيا يسمح له بالخروج من الكويت دون إبطاء، ودون إحراج إذا كان ذلك ممكنا، ويتحتم على مصر أن تجند العالم العربى كله لممارسة أقصى درجة من الضغط السياسى على بغداد، ويمكن عمل ذلك عن طريق اجتماع وزراء الخارجية العرب. .

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل (كتاب: حرب الخليج. . أوهام القوة والنصر) أن الرئيس مبارك كان يتصرف فى الأزمة وفقا لتقدير الموقف الذى تم إعداده بحسابات عملية وواقعية مؤداها: (١) أن الوضع السياسى العربى كما رآه قبل وبعد الأزمة، كان وضعا غير مرض، وكان محققا أن ينفجر فى أى لحظة من اللحظات. . (٢) وعندما جرى احتلال الكويت وانفجرت الأزمة فإنها كانت فى تقديره واصلة إلى حرب لاشك فيها، كما أن نتيجة هذه الحرب بدورها ليست موضع شك. . (٣) وكان حسابه فى النهاية أنه إذا جاءت الحرب فإنه لأكثر من سبب لا ينبغى أن يجد نفسه فى معسكر المنهزمين، فهو بذلك يتحمل تبعات لا دخل له فيها، وإذا كانت مسئولياته تطالبه بعمل شىء لتفادى وقوع كارثة فهو على استعداد للقيام به، لكن هناك حدا لا ينبغى تجاوزه، فإذا لم تنفع

جهوده، فقد أدى ما عليه!!

وكان تقدير الموقف فى هذه الحالة، أقرب لمن يريد ألا يتورط فى أزمة تواجه الأمة، أو لمن يريد أن يخرج من بين نيران الأزمة دون أن تحترق ثيابه!! وكأن ما تستطيع أن تقوم به مصر، أو يضطلع به دورها، هو ألا يتجاوز حدا كان مقدرا لها ولدورها، أو أن تقوم بما تستطيع فى حدود المتوقع من حسابات الأرباح والخسائر، حتى لا تجد نفسها فى معسكر المنهزمين!! وكأن تقدير الموقف يوصى بأن تؤدى مصر ما تراه مناسبا لها وفى حدود الجهد السياسى والدبلوماسى، ومثل غيرها من بقية الدول العربية، وإذا لم ينجح الجهد فقد أدت ما عليها!! وبالطبع هناك فرق بين أن تلعب الشقيقة الكبرى دورها، وتتحمل مسئولياته، أو أن تؤدى واجبا كأى دولة عربية أخرى!!

وكان واضحا أن القيادة السياسية تخشى مسئوليات الدور، أو ربما تتجاهل حقائق استراتيجية ضخمة تتصل بدور مصر، ومسئوليات هذا الدور.. وكان المناخ العام يهيئ لقبول أو التراضى بأداء مهمة وليس دورا.. وكانت تلك خطوة متقدمة للتراجع عن مسئوليات الدور، وأن تتحول مصر فيما بعد من لاعب رئيسى إلى متفرج!!

والواضح أن عناصر الحقيقة كانت ضائعة بين جميع الأطراف.. وحتى بعد أن انتهت عاصفة الصحراء بتدمير وحصار دولة عربية وتحرير أخرى، ومنح التواجد الشرعى للقوات الأجنبية بالاتفاقيات وعقود الامتياز فوق مياه وأراض دول الخليج العربى.. فإن الأمة خرجت من الأزمة أكثر استسلاما لليأس والإحباط والوصاية الخارجية!!

....

وأصبح ملف أزمة الخليج عنوانا للهموم العربية، وبعد أن جرت محاولات "تصنيم" هذه الأزمة، وتثبيتها شاهدا لتصدع وانهيار العلاقات العربية، واتخاذها ملاذا للطعن في كل مقومات وعناصر الأمة.. والاعتماد عليها في طرح مبررات الخوف وعدم الثقة في أي طرف عربي، وفي مقابل الاحتماء بالثقة في صداقة ومساندة أي طرف خارجي.. ومقاومة أية محاولة للمصالحة القومية العربية، ومن بينها مبادرة الدكتور عصمت عبدالمجيد ـ أمين عام جامعة الدول العربية وقتئذ ـ التي تقدم بها في الثاني والعشرين من مارس ١٩٩٣ وتضمنت رؤيته وأفكاره حول ما يراه ضروريا لاستعادة التضامن العربي، وإعادة بناء الثقة والطمأنينة داخل الأسرة العربية من خلال: البدء في إقامة بنية الأمن القومي العربي.. ووضع الضمانات وتحديد الالتزامات التي تجعل ما جرى في صيف عام ١٩٩٠ حدثا لا يجب ولا يجوز أن يتكرر أبدا.. وإعلان مبدأ احترام استقلال الدول العربية وسلامة أراضيها وسيادتها على ثرواتها وعدم التدخل في شئونها الداخلية.. واحتواء أزمة الخليج بمختلف مراحلها ونتائجها تمهيدا لإغلاق ملف هذه الأزمة وإخراجه من دائرة الهموم العربية..

والمؤسف والمحزن ـ معا ـ أن إغلاق ملف أزمة الخليج ارتبط بفتح ملف السطو المسلح على دولة عربية كبرى (العراق) مع الغزو الأمريكي البريطاني في شهر مارس ٢٠٠٣ وحتى حين سقطت بغداد في التاسع من أبريل ٢٠٠٣ في يد القوات الأمريكية كانت مشاعر "التشفي" والفرح داخل بعض دول الجوار الجغرافي للعراق، مثيرا للأحزان وباعتباره فعلا مذموما!!

والحاصل أنه مع زحام المتغيرات المتدافعة، كان العالم العربى تمسك به أزمات وصلت تداعياتها إلى حيث أفقدته الثقة بنفسه، وإصابته بحالة من الإحباط يهرب منها البعض إما بالاستسلام لليأس، وإما بالانسياق إلى خداع النفس.. وخيمت حالة من الفوضى العارمة على العالم العربى، وهى فوضى تضغط على كل معنى فيه: الهوية وأصولها، والشرعية ومصادرها، والقيم ومرجعياتها، بل تضغط على الحق والحياة والحرية فى أبسط تجلياتها!!

وهذه الفوضى ـ داخل أمة تتوجع فى صمت ـ قد تقترب فى بعض ملامحها من نظرية "الفوضى الخلاقة" فى الفكر السياسى الأمريكى.. ويصف العالم المصرى دكتور أحمد زويل نظرية "الفوضى الخلاقة" بأنها نظرية علمية فى الأساس وليست سياسية، وترتبط بأشياء كثيرة فى الكون يعجز الإنسان عن فهمها حتى فى ذات الإنسان نفسه، وهى تعنى اتجاه الظواهر من النظام إلى اللانظام وأن الساسة الأمريكيين والإسرائيليين يسعون إلى خلق فوضى فى العراق وفلسطين وغيرهما، ثم الاستفادة من هذه الفوضى فى خلق نظام يتماشى مع مصالحهم، ولكن إذا نجحنا فى توحيد طاقاتنا كأمة واحدة تكون لنا كلمة وقدرة تجعل العالم يحترمنا.. وقال د. زويل ـ فى الصالون الثقافى فى دار الأوبرا المصرية صيف ٢٠٠٦ ـ أن الفوضى الخلاقة ظاهرة علمية حيرت العلماء منذ مئات السنين، وهى ظاهرة اجتماعية أيضا تخضع لتأثير الزمن، فالقاعدة العلمية تقول: إن كل الظواهر فى الطبيعة لديها قابلية للانحلال أو عدم النظام، مثل قطعة ثلج متماسكة فى شكل قالب، وعندما تم تعريضها لدرجة الحرارة العادية ذابت وانحلت جزئياتها بعد أن كانت فى صورة منظمة، وهذا يعنى أنه بمرور الوقت سينحل النظام ويصير إلى لا نظام أو

فوضى. . والأجسام عموما لديها بطبيعة القانون الميل إلى الفوضى، وكلما زاد الزمن زادت قابليتها للفوضى. . وهناك إمكانية للتحول من الفوضى للنظام فى الكيمياء وفى المجتمعات أيضا. . وفى الكيمياء يمكن تحويل ذراتها من الهمجية إلى النظام عن طريق الإرشاد وهو ما يشبه فى المجتمعات الدستور والقوانين. فمن ذرات الضوء الهمجية يمكن بالإرشاد الوصول إلى اندماج نووى هائل أو الليزر. . وكذلك المجتمعات عندما توضع لها ضوابط يمكن أن تصبح قوة خارقة. . فالزمن يمكن أن يؤثر ونخرج من الفوضى إلى النظام. . وهناك فرق بين حقيقة الفوضى الخلاقة العلمية، وبين المصطلح الذى يطلقه السياسيون مؤخرا، فالفوضى الخلاقة ظاهرة موجودة فى العلم. لكن استخدامها فى العراق ولبنان وفلسطين يقصد به السياسيون الغربيون أتركوهم إلى أن يقضوا على بعضهم البعض أو "سيبوهم لما يخلصوا على بعض" فهذه ليست فوضى خلاقة وإنما فوضى مدمرة!

وهناك توضيح آخر للظروف والأحوال العربية وعلى هامش الرغبة الأمريكية فى الفوضى الخلاقة ـ ومن وجهة نظر العالم الدكتور أحمد زويل ـ بأن العرب أصبحوا خارج "الملاعب" . . وأن المتاح والممكن أمامهم هو اللعب فى "الحوارى والأزقة" وأن أحد المفاصل الأساسية فى أوضاعنا، أننا أصبحنا خارج الملعب الرئيسى. . والرجل لم يأت بجديد، ولكن كلماته تحمل قدرا كبيرا من الأسى والحزن، وكأنه يرثى واقع أمه!! وهو يرى أن العرب بلا وجود على خريطة العالم، حتى أن الغرب أصبح يضعهم ضمن صحارى إفريقيا علميا وفكريا، وأن المشكلة الأخطر أن المجتمع العربى أصبح وزنه ثقيلا وجسده مترهلا للغاية. . وبمعنى أن العرب كدسوا الدولارات فى جيوبهم، واللحوم والدهون فى أجسادهم،

ولم تعد لديهم القدرة على الحركة والتطور، وأنه على المستوى العام تراكمت المشاكل السياسية والفكرية، وبالتالى أصاب الترهل كل شىء فى حياتنا!!

وصحيح.. الرجل لم يأت بجديد فى تشخيص أحوالنا، ولكن كلماته - كالعادة - كانت أكثر تحديدا فى توصيف حالة الترهل والعجز.. وأن العرب لا يمتلكون أى عناصر قوة تجعل لهم وجودا فى عالم لا يتحرك إلا بدافع القوة.. وليست قوة السلاح والجيوش فقط، وإنما قوة المجتمعات: العلم، والاقتصاد، والصناعة، والتماسك الداخلى!! ورؤيته - وبصفاء فكر ورجاحة عقل - تقول: بأن الخطاب السياسى العربى قد سجل حالة فريدة، وباعتماده على لغة العواطف ومفردات "الواجب الإنسانى"!! وقد يكون مقبولا أن تكون هذه هى لغة حكماء ونبلاء العرب فيما بينهم.. ولكن ليس منطقيا أن تكون هى لغة العلاقات الدولية القائمة على المصالح المشتركة وعلى لغة القوة!! وليس منطقيا كذلك أن الخطاب السياسى العربى تكثر فيه كلمة (نطالب) بينما من يطالب يجب أن تكون لديه القدرة على أن يطالب، وأن يكون عنده المنظومة التى تدفع الآخرين للاستجابة!!

....

وإذا كان الرجل - وهو أحد رموز العلم فى عالمنا المعاصر - لم يأت بجديد فى تشخيص أحوالنا وأوضاعنا.. إلا أنه قد أعادنا مرة أخرى إلى قراءة ملامح الصورة، وأننا فى حالة أسوأ من "الغياب" وغير قادرين على صنع القرار.. لا أحد فى العالم العربى قادرا، ولا أحد لديه القدرة!! وأن الوضع العربى الراهن يجعل كل طرف يهتم بنفسه، وهذا

يحـدث وقت الأزمات، وهى مـتسلسـلة ومتـواصلة، ومن العـراق إلى الصومـال إلى السودان.. وكانت فى المـقدمة يوما مـا "القضية العـربية الأم" القضيـة الفلسطينية، والـتى تحولت مع التراجع العـربى إلى "أزمة عـمليـة السـلام فى المنطـقة" والتـى تحتـك بأزمة الـوضع الفـلسطيـنى الداخلى.. فضـلا عن الأزمات النائمة والـقضايا المعلقـة ومن لبنان إلى سوريا، ومـرورا بأطراف المغرب العـربى.. كل طرف عربى يبـحث عن "خلاصه" الخـاص، وبمعنى أن الكل يهرب.. وأننا نعـيش لحظة هروب فى التاريخ العربى!!!

وفى هذه الأجواء كان البحث جاريا ـ ولو بصيغة التساؤل ـ عن دور مصر؟!

والتساؤل كان عن دور الدولة القائدة وهو دور يتسم بتحمل المسئولية والتضـحية، ليس دور التـرف بل دور العبء، ومن المهم تفـاعل الدولة القائدة مع باقى أطراف النظام العربى الذى تقوده، وأن يترتب على عملية التفاعل هذه تحقيق مصالح كافة الأطراف.. ولكن دور مصر الذى تبحث عنه التسـاؤلات الحائرة والقلقة، كـان بدوره محاصرا بحقـائق تحدد أبرز ملامح الإقليم العربى وهى:

* الحقيقة الأولى: أن العالم العـربى قد اختلت موازنيه من الداخل، وأن الأمن العربـى المشترك قد اهـتز عند قوائمـه.. والقواعد العـسكرية والاتفـاقيات الأمـنية ـ فى صـورة امتـيازات ـ مع الولايـات المتحـدة قد بسطت وفرضت أحكامها، وأصبح التـأثير الأمريكى نافذا.. صحيح أن بعضـهم اختار التعـاقد وتسليم مفـاتيح الأمن الوطنى للولايات المـتحدة وضمـيره مسـتريح، وبعـضهم اختـار وضميـره مازال قلقـا.. وفى كل

الأحوال فإن الذين يتطلعون إلى الولايات المتحدة كى تحميهم ليس أمامهم أن يعارضوا خططها!!

* الحقيقة الثانية: انفك التماسك واختل التوازن بين الدول العربية، وحتى الإطار المحيط بها - جغرافيا - أصابته هو الآخر شقوق وشروخ.. وانتهى الأمر بغالبية الدول العربية - أو مجتمعة كلها - أن تصبح مروضة، مستأنسة، وتتفق فيما بينها على قرارات فى الفراغ.. ويحدث ذلك فى القرارات السياسية، وفى القرارات الاقتصادية، وفى غير ذلك من المجالات، وتكاليفه على الأمن القومى العربى فادحة(!؟!)

* الحقيقة الثالثة: وبلغة الأرقام فإن أكثر من عشرين دولة عربية ترسم لوحة سريالية للوطن العربى.. من بينها ثلاث أو أربع دول فاعلة فى المنطقة وليس أكثر، وحتى فاعليتها أصبحت باهتة أو واهنة مهادنة!! وهناك دول لا أمل فيها ولا فائدة، وهى مزدحمة بأسباب التناقض الاجتماعى والتخلف والفقر!! ودول عربية أخرى تخضع لتوصيف "لا حول ولا قوة" ولا تستطيع التغلب على مخاوفها الأمنية والسياسية، وسوف يفزعها أن تجد نفسها أمام التزامات قومية محددة وواضحة(!!!)

والمأساة التى ترتبت على ما سبق: هى الانصراف إلى استئناس هذا الواقع، وبعد أن تم اللعب بالتاريخ، وانقلب الحال، وأضحى كل واحد فى الإقليم العربى بمفرده، ويسعى للخلاص فوق بقايا أو شظايا فكرة المشروع القومى للأمة، وحتى اختل توافق الأطراف فى أمة أصبح بعدها السياسى وبمحتواه القومى مضروبا!!

* الحقيقة الرابعة: وجود حساسيات بين دول عربية تختلف فى مصالحها وفى غيبة استراتيجية عامة وشاملة ومستمرة لأمة - المفروض -

أنه يربطها نفس المستقبل ويجمعها نفس المصير . . وربما كان ذلك هو بعض سبب الخلافات حول تعطيل رد الفعل العربى، وطالما أن العالم العربى مجموعة إرادات موزعة، وأحيانا متنافرة ومتصادمة، وبالضرورة ليست خاضعة لإيقاع واحد، وهكذا يبدو النظام العربى ـ وفى مجمله ـ قد ضاع منه هدفه الرئيسى!!!

* الحقيقة الخامسة: حركة خارجية ـ أمريكية أوروبية ـ تحاول أن تملأ المنطقة بنظام الشرق الأوسط الكبير. . وهى بالطبع ليست مجرد تصورات تحملها الرياح إلى منطقة الشرق الأوسط وشعوبه وممالكه، ولكنها "مشروع قرارات للتغيير والإصلاح" فى صورة مبادرات أعلنت عن نفسها صراحة هذه المرة وليس بالخديعة والمراوغة كما تعودنا. . ويبدو أن أحدا لم يعد مستعدا للتفكير مرة أخرى بسرعة فى كل ما يجرى، وقبل أن نصبح كمن يدعو أنفسهم إلى مهرجان صاخب تدور أحداثه فوق أراضيهم(!؟!)

* الحقيقة السادسة: أن أوراق لعبة التوازن الدولى قد اختلطت بالتطورات الأخيرة فى المنطقة العربية. . ثم جاءت عاصفة الظروف الأخيرة بعد احتلال العراق تدفع الأمور إلى دوامات أكثر تعقيدا فى منطقة توتر وقلق وفى ذلك الوقت الحافل بالتأثيرات الدرامية!!!

* الحقيقة السابعة: هناك عنصر ضاغط بقسوة الآن. . وهو عنصر يمكن أن نسميه عنصر الإيقاع الزمنى للحركة الأمريكية فوق الإقليم العربى. . وأصبح كل شىء ـ تقريبا ـ فى بلادنا العربية المكشوفة معرضا ومستهدفا. . شواهد الأحوال تقول لنا أن هذه الأمة تعيش ـ جغرافيا ـ داخل منطقة نفوذ أمريكية، وأن هناك صورا متعددة من أشكال الوصاية

والهيمنة، وإلى تلك الدرجة المتقدمة فى بعض المواقع العربية من عقود المشاركة فى الدفاع عن الأمن العربى!! وأن النفوذ الأمريكى قد تجاوز كثيرا صيغة تقليدية كان يطلق عليها "التبعية العربية للصديق الأمريكى" . . وبمعنى: ساحة عربية مفتوحة أمام السلطة والسطوة الأمريكية. . وساحة عربية مفتوحة للفكر والثقافة الأمريكية. . وساحة مفتوحة للدور الأمريكى. . وسوق مفتوحة للاقتصاد الأمريكى. . ولا تقف الأمور عند هذا الحد، لأن النفوذ الأمريكى أكبر من هذه التصورات وأشمل، ويلقى بظلاله على صياغة وصناعة القرارات العربية أحيانا كثيرة(!؟!)

. . . .

ونحن لا ننكر أن الأنظمة العربية ـ كانت ولا تزال ـ فى حيرة من أمرها. . فى مأزق حرج. . مأزق تتصادم فيه ضرورات وأحكام الصداقة الأمريكية. . مع مقتضيات وواجب المسئولية الوطنية والقومية!!

وفى الجملة. . فقد توزعت مواقف الدول العربية حسب الاقتراب من حدود وأحكام الصداقة الأمريكية. . إلى ثلاث طوائف:

* دول عربية تحافظ على أصول أو (لعبة) الصداقة. . وهى ترى أن الالتصاق بالجدار الأمريكى يوفر لها مظلة الحماية للأمن والمصلحة. . الأمن وقد يبدو فى النطاق الشخصى أو الذاتى، والمصلحة بمفهومها الضيق!!

* ودول عربية تسعى لنيل الرضا وإلحاقها فيما بعد إلى دائرة الأصدقاء. . وهى تقدم فروض الطاعة، وتحاول أن تثبت أنها يمكن أن يعتمد عليها أمريكيا!!

* ودول عربية لا يتم تـصنيفها فى دائرة الأصدقـاء، ولكنها لا تجرؤ أن يتم تصنيفها فى دائرة الأعداء.. وهى ـ بإيجاز غير مخل ـ تقف على الهامش، لا تعترض على شيء، وإن كانت لا تخفى الرغبة فى الاقتراب أكثر وأكثر من حدود الصداقة والتبعية!!

وعلى أية حال هناك خلـط شديد بين الصداقة والتبعيـة.. فالصداقة تحددها مـوازين القوى وعلاقات مـصالح متبـادلة ومتوازنة بيـن قوتين، وعلى أسس من التفاهـم تراعى سيادة واستقلالية قرار كـل منهما.. أما التبـعية فـهى شيء آخر تمـاما.. هى علاقـة أدنى بين دولة كـبرى ذات سلـطان غـلاب، وبين دولـة أخرى عـليـهـا فقـط أن تتلـقى المطـالب والتـوجيهـات، أى دولة لها دور أو وظـيفة، ومـقابل وعـود باستـقرار "كرسى" القيادة.. وهى بالطبع علاقة خارج نطاق السيادة والاحترام!!

والخلط الشديد بين الصداقة والتبعية.. دفع ثمنه قادة دول من هاييتى إلى الفلبين ومرورا بشاه إيران.. وغيرهم ممن كانوا يتصورون أنهم حلفاء أو أصدقاء أمريكا، وكان رهانهم دائما على "السيد الأمريكى"!!

....

....

والمشكلة أن النقطة الجوهرية فى محـنة العالم العربى قد تجاوزت كل العناصر التى تؤثر على التمـاسك والتناسق والتوازن، فكل هذه الأوضاع دخلت عليـها تغييرات داهمـة وخطرة، وهناك من يريد أن يمـلأ المنطقة العربية بنظام آخر تتوفر له هوية مستجدة، وإطار أكثر اتساعا ـ هوية على المشاع ـ ومـن هذه النقطة نـستطيع أن نـتابع حالـة الانفلات والتـشتت، وحالة شبه مستعصية من الترهل والعجز(!؟!)

وهذه الحالة أو الصورة الشاملة للأوضاع فى العالم العربى قد تأملها أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل منذ سنوات، ووضع توصيفا دراميا مبدعا لها، وقد أجاد بالفعل التعبير عن الإحساس الغريب الذى يراودنا فى تلك اللحظة من الزمن الجارى.. إحساس بأننا جميعا فى العالم العربى ركاب على طائرة مخطوفة.. والطائرة الضخمة تدخل وسط العاصفة، الجو يغيم، السحب المشحونة تتصادم، البرق يلمع بقرب الأجنحة كأنه لسعات سوط له أكثر من لسان.. والمشاعر تتوتر فى الطائرة، والأعصاب مشدودة، والقلق يمسك بالأنفاس.. الطائرة مخطوفة وعلى الكل أن يلزم مكانه ولا يتحرك، ولا أحد يسألنا فى شىء، ولا نحن قادرون على أن ننطق بشىء.. والعاصفة عاتية والخطر مجنون، والمصير علمه عند الله، ونحن فى طائرة مخطوفة بين السماء والأرض يتحكم فيها حامل مسدس!! صورة مفزعة ومع ذلك فهى قريبة من واقع الحال الذى نعيش فيه!؟!

والعاصفة مازالت تلعب بالطائرة المخطوفة.. ونحن جميعا فى العالم العربى - ركاب هذه الطائرة - نعرف جيدا كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ وكيف فقدنا السيطرة على الطائرة وعلى كيفية اتخاذ القرار وعلى وسائل فرض القرار؟!

وركاب الطائرة المخطوفة - يأسا أو عجزا أو استسلاما للواقع - قد فوضوا أمرهم للمصادفات ربما تحمل إليهم ما لم يخطر على بال حتى تمرق الطائرة من سحب الأزمة وحتى ينتظم خط سيرها فى الفضاء العالى!!

وهذه بعض ملامح الصورة التى نعرفها جميعا ونعرف مشاعرنا

إزاءها، حركة غامضة فى الطائرة المخطوفة(!؟!)

ويظل التساؤل قائما: ما الذى يفعله العرب بأنفسهم!؟! هناك موقف مؤسف ومحزن فى العالم العربى، وكان يجب أن ننسق سياستنا مع بعضنا البعض ولكننا لم نفعل، أو فشلنا، وقد أدركنا أننا لا نستطيع ولم نستطع فى ظل قيود التبعية وغياب الإرادة السياسية المستقلة..

والحاصل.. أن تداعيات ما حدث ويحدث، وفى إطار هذه الصورة من شواهد الأحوال العربية، واختراقات وتصدعات الواقع العربى، كانت تضغط على حركة الدور المصرى وتحاصره، حتى لو افترضنا جدلا أن هناك نوايا ورغبة جادة فى أن يكون للدور حركته التاريخية المسئولة.. وأتصور أن أى جهد سياسى أو حتى دبلوماسى لدور مصر الإقليمى والعربى،كان عليه أن يتخطى حواجز كثيرة عربيا وأمريكيا تتحسب جيدا لحركة الدور المصرى.. وكان عليه أن يحتك احتكاكا مباشرا ـ وبالتصادم ـ مع مواقف عربية لها توجهاتها الخاصة "المقيدة" بتوجهات خارجية!! وكان عليه أن يتعامل مع تعقيدات ميراث التشتت والتفتت والشكوك والظنون التى تفعل فعلها على الساحة العربية!! وكانت النتيجة ـ كما نرى ـ أننا تركنا للآخرين حقوق الوصاية على أحوالنا ومقدراتنا وتحركاتنا وترسيم حدود المستقبل:

* هناك من يريد أن يملأ المنطقة بنظام عربى تتوفر له أسباب الإذعان للولايات المتحدة الأمريكية.. وقد حدث!!

* وهناك من يريد أن يملأ المنطقة بنظام شرق أوسطى جديد تتوفر له أسباب التبعية والانتماء للسياسات الأمريكية، وضمان نهائى لأمن إسرائيل!!

وأتصور أن الإضافة الدرامية لهذه الصورة، قد بدأت بالإعلان عن التصنيفات الجديدة التى تشطر المنطقة إلى مجموعتين رئيسيتين: مجموعة المعتدلين العرب.. ومجموعة الراديكاليين أو المتشددين وملحقاتها من حركات أو تنظيمات أو جماعات وميليشيات الرفض المسلح!! والمجموعة الأولى من وجهة نظر أمريكية - هى مجموعة الحكماء أو العقلاء العرب الذين يدركون جيدا حقائق الواقع، وحدود الحركة المتاحة، والالتزام بإحكام موازين القوى فى العالم والتى تديرها وتتحكم فى توازناتها القوة الأمريكية الأعظم!! أما المجموعة الثانية فهى تضم الانفعاليين، والمتهورين والذين يدعمون الإرهاب بديلا عن الحوار، ويتصورون أن مناطحة الواقع نوع من البطولة وإثبات الذات.. وقد فقدوا الوعى بأحكام المتغيرات والمستجدات التى تفرض نفسها.. ولذلك فهم يتحدون الزمن الراهن(!؟!) وبين المعتدلين والمتشددين.. هناك مجموعة عربية ثالثة.. هى مجموعة (لا حول ولا قوة) وتقف على الهامش.. على رصيف الأحداث!!

وأعتقد أن اجتماع القاهرة مساء الثلاثاء (٣ أكتوبر ٢٠٠٦) برئاسة وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة "كونداليزا رايس" ومشاركة ثمانى وزراء خارجية عرب يمثلون مجموعة (جى سى سى +٢) أى دول الخليج الست ومصر والأردن.. هذا الاجتماع وهو الأول من نوعه فى المنطقة قد دشن لتلك المرحلة من الطائفية السياسية العربية.. بين حكمة المعتدلين و"نزق" المتشددين.. بين من يعرفون قيمة وأصول الصداقة مع الدولة الأعظم.. وبين من لا يعرفون لغة الحوار فى العلاقات الدولية الجديدة!!!

وأظن.. أن التفسير الصحيح للمواقف والسياسات والتراجعات العربية هو أن ما يجرى وما يحدث على الساحة العربية لابد أن يكون وفقا لرؤية الولايات المتحدة الأمريكية.. ولا أقول أوامرها!! وهناك حقيقة أخرى أصبحت من ثوابت الفكر السياسى العربى.. وهى: ماذا تريد أمريكا حتى يفعل العرب ما تريد!! وبالضرورة فإن كل ما هو متاح وممكن أمام الحكماء فى منطقتنا العربية لن يتجاوز ما هو مناسب للمصالح الأمريكية.. وبصراحة - أكثر - لا يجرؤ أحد على تجاوز ما تراه أمريكا مناسبا، وفى صورة تفريغ العالم العربى من ذاتيته، وهويته، وانتمائه، وإعادة تشكيله وفقا لمواصفات تخدم المصالح والمطامع الخارجية، وفى محاولة أمريكية لتغيير المنطقة بامتداد يتسع الشرق الأوسط كله.. وكأن الساحة السياسية العربية - أمامهم - خالية من أى قوى منظمة تستطيع أن تعترض على أى تغيير أو تطوير يفرض عليها فرضا، فضلا عن أن تقاومه(!؟!)

....

....

وفى كل الأحوال، لم تكن مصر لاعب رئيسى وبأحكام مقتضيات وضروروات ومسئوليات دورها، ولكنها اكتفت بدور المتفرج، أو على الأقل المشارك ضمن فريق المعتدلين العرب - لا أكثر ولا أقل - ومن المحافظين على أحكام وأصول الصداقة الأمريكية، ولمصلحة بقاء واستقرار النظام الحاكم، وشأنها شأن غيرها من الدول العربية!! وكانت تلك الحالة متوافقة مع ما يريده آخرون.. فقد كانت هناك عناصر وعوامل داخل الساحة العربية كانت تدفع بالرغبة وبحسابات المصلحة

القطرية إلى غيـاب دور الدولة القائد. . وهو دور يتسم بتحمـل المسئولية والتضحيـة، ويستند على الركيزة الثـابتة والعميقة الجـذور، وهى الركيزة العربية. وهناك ضغوط وتحديات خارجـية ـ وأمريكية فى المقدمة ـ وهناك حقائق ـ ذكرنـاها سابقا ـ فرضت ملامح الواقع العـربى الراهن المسكون بالفوضى كـانت تدفع باتجاه تراجع دور مصـر. . وهو المحور الذى تدور حوله الحركة. . وفى غياب المحـور عن أداء دوره، فإن هناك خلخلة فى أداء كل حركة. .

وتذكـرة سريعة بـالمناخ الحافـل بالتأثـيرات الدراميـة تبدو ضـرورية ولازمة!!

□□□

دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

التاريخ.. لا يغفر الذنوب

هذا الركام الضبابى ليس العروبة

هذا ضريح.. تمدد من آخر المتوسط حتى الخليج

الشاعر محمد سليمان

وفى ظل المناخ العربى العام ـ والأمواج متلاطمة والعواصف تهب كاسحة على المنطقة ـ وقبل أن يكون التساؤل حائرا حول دور مصر . . كان التساؤل القائم وبمشاعر القلق والخوف والإحباط: حول (معنى) كل ما يجرى ويحدث على الساحة العربية؟!

وبالطبع لم يكن دور مصر بعيدا عن كتيبة التساؤلات التى تحيط بالواقع العربى . . بل بدت تلك التساؤلات الحائرة والقلقة وفى جانب كبير منها وكأنها موجهة للبحث عن دور مصر فى مواجهة كل ما يجرى ويحدث!!

وفى هذه الموسوعة من الأحوال العربية كان المشهد العراقى ـ قبل وأثناء وبعد السطو المسلح الأنجلو أمريكى فى ربيع ٢٠٠٣ ـ شاهدا على تشتت الفكر والفعل العربى . . شاهدا على أن هذه الأمة أصبحت تعيش جغرافيا داخل منطقة نفوذ أمريكية، وأن هناك صورا متعددة من أشكال الوصاية والهيمنة!! وشاهد على أن الفكر السياسى العربى قد استقر فى السنوات الأخيرة على منهجية عمل تقول: ماذا تريد أمريكا حتى يفعل العرب ما تريد!؟!

وكانت صورة الحركة على الساحة العربية ـ قبل [illegible] من الغزو الأمريكى للعراق . . وخلال الحرب ـ تكشف عن مواقف ـ ربما كانت غير مسبوقة فى التاريخ العربى ـ وهى تساند صراحة دون خجل حركة العدوان الأمريكى المسلح . . وما حدث كان أشبه بتحالف حرب ضد دولة عربية . . وكانت القواعد الأمريكية الضخمة ومراكز للحرب الجوية فى دول عربية خليجية . . تستقبل طلائع الحشود الأمريكية لغزو العراق . . وانقسمت المواقف العربية الأخرى بين الرفض بالصمت . . أو

اللامبالاة.. أو المناشدة "الخجولة" لضبط النفس وفى محاولة لإبراء الذمة!! أو التحذير من تداعيات العدوان على العراق.. وكان هناك فعلا مذموم عبرت عنه مواقف "التشفى" من دولة عربية ومن نظامها الحاكم!!

....

....

وصورة المناخ الذى جرى تحته الإعداد للغزو المسلح - قد رسمها الجنرال ويسلى كلارك فى كتابه (كسب الحروب الحديثة: العراق، والإرهاب، والإمبراطورية الأمريكية) والجنرال كلارك واحد من رجال المؤسسة العسكرية الأمريكية وعلى صلة وثيقة بوزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" ونافذ إلى ما وراء أسوارها.. والصورة التى يرسمها الجنرال كلارك فى كتابه مستندا على معلومات من مصادرها العليمة، توضح أن السياسة الأمريكية الحالية لتغيير الشرق الأوسط، والتى بدأت بالحرب ضد العراق، وتحت مسمى الحرب عل الإرهاب فى العالم، هى سياسة كانت مجهزة من قبل أن يقع الهجوم الإرهابى فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ويقصد "ويسلى كلارك" أن الأهداف قد سبقت سياسة تعبر عن فكر أيديولوجى لجماعة المحافظين الجدد الذين تولوا صياغة توجهات السياسة الخارجية والعسكرية فى إدارة الرئيس الأمريكى الأسبق جورج دبليو بوش، وهو الفكر الذى يتضمن أولا هيمنة أمريكية على العالم تسيطر على موارد الثروة (البترول) وعلى مواقع النفوذ جغرافيا وسياسيا، تبدأ من السيطرة الإقليمية على الشرق الأوسط من خلال حرب على دولة تكون هى الحلقة الأضعف فى المنطقة ممثلة فى حكم

يواجه معارضة من شعبه والعالم، ويتضمن ثانيا ارتباطا تنظيميا بإسرائيل والتمكين لها من هيمنة بالوكالة على المنطقة، بعد أن تكون صدمة الحرب فى العراق قد أثمرت فى خلق حالة من الخوف على أقل تقدير، أو الانكسار النفسى والسياسى على أكثر تقدير، مما يسهل إعادة رسم خريطة المنطقة ليكون لإسرائيل فيها وضع محورى فى علاقاتها المتغيرة!!

ويقول الجنرال كلارك أن التخطيط للحرب على العراق كان مختلفا عما اعتاده العسكريون بالنسبة لأى حرب يدخلونها، فالخطط الرئيسية العامة لهذه الحرب كانت قد وضعت قبل عشر سنوات، ثم تم التخطيط التفصيلى لها فى يناير ٢٠٠٢، فى واحد من سلسلة اجتماعات رأسها وزير الدفاع "السابق" رامسفيلد وحضرها الجنرال تومى فرانكس الذى تولى قيادة مسرح العمليات، وسبق ذلك بداية عملية التخطيط منذ نوفمبر ٢٠٠١ مع توجيه سياسى جاء من أعلى المستويات فى الحكومة.. وبعد أن ألقى الرئيس بوش خطابه "حالة الاتحاد" أمام الكونجرس فى يناير عام ٢٠٠٢، كانت السياسة الخاصة بالحرب قد تحددت، وأصبحنا على مسار الحرب ضد العراق.. وعندما كنت فى البنتاجون فى شهر نوفمبر ٢٠٠١ قال لى واحد من هيئة كبار الضباط : أننا مازلنا على الطريق نحو ضرب العراق، لكن هناك المزيد، وهو ما جرت مناقشته كجزء من خطة لحملة تنفذ على مدى خمس سنوات، وتشمل سبع دول، تبدأ بالعراق، ثم سوريا، ثم لبنان، وليبيا وإيران والصومال والسودان!! وفى موجة الانفعال بإسقاط صدام حسين كانت الأحاديث فى واشنطن فى أبريل ٢٠٠٣ تتحدث عن الإمبراطورية الأمريكية، والفكرة ذاتها مضللة، وأن صورة القوات الأمريكية باعتبارها قلب الإمبراطورية الجديدة ـ قوة التحرير التى تجتاح الشرق الأوسط وتزيح

أنظمة الحكم المناصرة للإرهاب، وتقيم ديـمقراطيات على النمط الغربى ـ إنما هى رؤية مضمحلة!!

.....

وهذه هى الحقيقة.. وإن كانت ليست كاملة بالطبع!!

والشاهد.. أن الكل يدور ويلف حول حقيقة فرضتها عملية السطو المسلح الأمريكى على العراق.. حقيقة التنكيل بالعراق، وتزايد عمليات الصراع الطائفى وتصفية الحسابات، والتى يجب أن تنتهى ـ حسب تقرير أعده باحثون إسرائيليون بمركز هرتزليا ـ بتقسيم العراق، وباعتبار أن ذلك أفضل وسيلة لخدمة الأهداف الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة، وأنه فى حال لم يسفر الاحتلال الأمريكى للعراق عن تقسيم هذا البلد فإنه يمكن اعتبار الحرب الأمريكية فاشلة من أساسها ولم تحقق أهدافها، ولذلك يتوجب القضاء على الوحدة الجغرافية للعراق وتسهيل إقامة دويلات طائفية، وإضعاف الوجود السنى فى العراق وضرب حركات المقاومة السنية!!

وهكذا يفكرون..

وفى هذه الأجواء.. نحن نركز على جزء من الحقيقة ونترك الحقيقة كاملة!!

وأغلب الظن.. أن المشهد العراقى الراهن حافل بعشرات الأسباب التى تجعلنا نقيم للمجهول ألف حساب وحساب!!

ومع هذا الاندفاع نحو المجهول.. كانت التساؤلات عن "دور مصر" وسط دوامات من أمواج متلاطمة تثيرها مطامع ومصالح إقليمية

ودولية.. مطامع وأهداف أمريكية لا تقبل التراجع.. ومواقف عربية لا تستطيع الإخلال بمصالح ومطالب "الصديق الأمريكى" ولا تقوى على الرفض أو حتى التردد وبعد أن ارتبطت المصائر بعقود اتفاقيات أمنية وامتيازات عسكرية وهى ترى فى الولايات المتحدة الأمريكية السند والمدد الوحيد!! وإلى جانب دوامة التلوث السياسى والطائفى داخل العراق.. هناك صدام وصراعات المصالح "الضيقة" المذهبية والعرقية.. واختلطت أشياء كثيرة.. الخاص مع العام.. وأصول القضايا مع فروعها.. وأطل شبح بدا مرعبا أمام الجميع (الحرب الأهلية الطائفية) تدفع مقدماتها بالجثث مجهولة الهوية على قارعة الطرق.. وبدا واضحا أن هناك سياقا عاما يصل بين الحوادث والتطورات داخل العراق، وما بين المطامح والمطامع.. وأن الحوادث والتطورات مجرد مشاهد ساخنة أو "موجات همجية" فى سلسلة الصراع على المنطقة وفيها!!

وكان واضحا منذ البداية أن حركة الدور المصرى ـ الجهد السياسى والدبلوماسى ـ يتحسب جيدا لتداعيات الجيوش الزاحفة على الإقليم العربى، وإلى جانب الأفكار الزاحفة قبل الجيوش وبعدها.. وأتصور أن مصر وفى تقديرها للموقف كانت تدرك مطامع قوة متحفزة للسيادة على المنطقة، والسيطرة على مصائر ومقادير، وأن جهد الأمة وطاقاتها أصبح مشتتا، وأن المزاج السائد غير مستعد لمراجعة حسابات ما يحدث ويجرى.. وفى هذا الجو المفعم بخيبة الأمل كانت كل الأنظار ـ تقريبا ـ تحاول أن تهرب مما حولها!!

والحاصل أن ساحة الحركة أمام الدور المصرى كانت محفوفة فى كثير من جوانبها بنوع من ذلك "الهروب العربى" وفى منطقة دخلت فى

نطاق النفوذ الأمريكى.. منطقة مزدحمة بالشك ومعرضة طول الوقت للمفاجآت.. وقد اتسعت الشقوق والتصدعات بين المواقف التى بدت صورة معظمها "سيريالية" أقرب للعبثية والعشوائية وأصبح سد الفجوات بينها جهدا ضائعا.. وكأن الأمر الواقع أصبح واقعا وخاضعا لمركبات الاستعلاء التى تحكم تصرفات دولة عظمى (أمريكا).. وفى نفس الوقت كان غائبا ـ وعن قصد مقصود ـ وضع مصالح مصر ومكانتها فى المسار الصحيح!!

وهكذا.. كانت رؤية البعض أن الجهد السياسى والدبلوماسى المصرى لا يختلف عن جهد أى دولة عربية أخرى رغم أن المسئوليات الكبرى ملقاة على عاتق الدولة القائدة ودورها التاريخى فى المنطقة وما حولها!!

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

تصورات حول دور مصر

"إن التاريخ فى عجلة من أمره
للعودة للوضع الطبيعى.."

فرانسوا ميتران
الرئيس الفرنسى الراحل

ومهما كان من أمر الأسباب التـى عددتها ـ أو أسباب أخرى غيرها ـ كان لها تأثيرها على حركة الـدور المصرى، وأثقلت عليه. . فإنه لم يكن غريبا أو مـستغربا بعد ذلك أن يصـبح التساؤل حائرا وقلقـا (إذا افترضنا حسن النوايا) أو تساؤل بدوافع التشـكيك فى كل شىء (إذا افترضنا سوء النوايا) حول حركة الدور المصرى أو دور الدولة الـقائد فى المنطقة العربية وفى محيطها الإقليمى؟!

والحديث عن دور مصر ـ فى السنوات القليلة الماضية ولا يزال جاريا ـ يطرح تصورات حول تآكل أو تراجع أو غياب أو تعطيل (الدور) ولكن قد تكون هذه الـتصورات مقبولـة وبالمنطق المجرد إذا كانت تـتحدث عن تغيـير فى حـركة واتجاه الدور المـصرى، أو أنه ـ مثـلا ـ لم يكن فـاعلا ومؤثرا كمـا كان متوقعا وبما يـتناسب مع حجم وثقل والميـراث التاريخى لهذا الدور. . أما تصور الغياب الكامل أو التآكل أو التراجع، فهو يوازى تماما تصور غياب أو تراجع مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها وعن تراثها الإنسانى والحضارى، وعن ضرورات أمنها ومقتضيات مصلحتها. .

وذلك غير ممكن، وغير محتمل. .

وأجد فى كل ما يقـال تجاهلا للملابسات والمضاعفـات عربيا ودوليا والتى أثقلت على حركة الدور. . وتجاهل للتأثيرات المحتملة لحركة تفاعل الأزمات التى تزاحمت وتصادمت فى المـنطقة خلال السنوات الأخيرة. . والتأثيـرات المحتملة لحـركة الصراعـات الدولية، سيـاسية واقتـصادية. . وتجاهل لحقائق ترسم صورة عالم عربى أصبح فى حالة خصام مع مبادئ وقيم وثوابت، وكان مشتبكا مع نفسه فى نزاعات وحروب. . عالم عربى يعيش حالـة استباحة كاملة لمصـائره، وأصبح فريسة مكشـوفة للعدوان،

والأمثلة كثيرا وآخرها الغزو الأنجلو أمريكى للعراق.. عالم عربى تحكمه مجموعة من العقد إلى جانب مؤثرات تهب عليه من خارجه، فضلا عن حجم النفوذ الأجنبى والاختراق الأجنبى لحياة الأمة وقد زاد، بل ولم يعد الاعتماد على الأجنبى يدارى نفسه ولكنه يعلن عن نفسه مختالا فخورا!!

وربما يقال - والقول صحيح - أن نفس الأسباب والمؤثرات التى أثقلت على حركة الدور المصرى، وحاولت تعطيله، هى نفس الدواعى التى كان يتحتم من أجلها أن يتحمل الدور المصرى مسئوليته التاريخية تجاهها، وأن تكون حركته فاعلة ومؤثرة للتعامل مع هذه التطورات والأزمات والتعقيدات والاعتبارات المتشابكة والمتناقضة؟!

وأن حركة الدور المصرى قد تراجعت بفعل أخطاء تقدير حسابات فى الفكر والفعل السياسى المصرى!! وأن الأزمة التى حجمت دور مصر، قد بدأت حين لم يستوعب النظام الحاكم، أن دور مصر له خصوصية ومنذ بدايات ما قبل التاريخ، وأنه أقرب إلى الأقدار التاريخية، وأن مصر تستمد تأثيرها من دورها، وفى هذه الحالة فإن القدرة أو الرغبة فى أن تتحمل مصر مسئوليات دورها كانت غائبة، طوال أكثر من ثلاثة عقود، ومنذ السنوات الأخيرة من حكم الرئيس الراحل أنور السادات، ومع مؤثرات "رد فعل" لمواقف المقاطعة العربية لمصر، والدفع بشعار "مصر . . أولا"، وتواصلت طوال عهد الرئيس السابق محمد حسنى مبارك، وبرؤية تتعامل مع رد الفعل متأخرا، وفى حدود ما يرونه متسقا مع التوازنات الدولية، والإقليمية، ويحقق المصالح الضيقة لوطن ومؤسساته الحاكمة، وأن مصر لا تتحمل فوق طاقاتها من أجل الآخرين

داخل محيط أمتها العربية، أو لماذا تتحمل وما هو الهدف والثمن؟!! وهى مؤثرات طارئة وعارضة على المسار التاريخى لحركة الدور المصرى

. . . .

. . . .

وإذا كان من الخطأ والخطيئة ـ معا ـ أن نتعامل مع دور مصر برؤية مسطحة ؛ لأن الأمر يرتبط بالتفاعلات التاريخية والحضارية، والتى لا يمكن إغفالها!! فإن الخطأ الأكبر أن تكون رؤية الآخرين قاصرة فقط على جانب واحد ؛ لأن معنى ومفهوم الدور المصرى أكبر وأشمل ـ سياسيا وثقافيا واجتماعيا وعسكريا ـ والرؤية الضيقة ترى بأن الدور مجرد جهد سياسى لدولة ما فى مرحلة زمنية أو لحظة عابرة تفرضها أحداث أو أزمات طارئة؟!! إنهم يخلطون بين كل هذه التصورات "العشوائية" لمعنى ومفهوم الدور!! وربما لا يدركون أن التاريخ هو الذى يملى على دولة ما دورها. . وأن دور مصر قدر تاريخى لعبقرية المكان، وأن الأقدار التاريخية للشعوب هى نتائج مباشرة للجغرافيا والتاريخ منذ الأبد إلى الأزل. .

وبهذه الرؤية الضيقة يشيد تقرير مركز دراسات أمريكى ـ مؤسسة "ستراتفور" للاستخبارات والدراسات السياسية فى شهر يونيو ٢٠٠٧ إلى أن دور مصر أصبح فى "المؤخرة" مع تراجع مكانة مصر كزعيمة للمنطقة لصالح المملكة السعودية!! ويقول التقرير:

"عندما يعيد التاريخ نفسه فى الشرق الأوسط فإن ذلك غالبا ما يتم بشكل كئيب وساخر، خذ عندك مصر كمثال، بعد ٤٠ عاما من هزيمتها النكراء أمام إسرائيل فى حرب الخامس من يونيه عام ١٩٦٧ تجد أن

الدولة التى تزعمت العالم العربى فقدت مكانتها كقطب أوحد. . وخلال الشهور الأخيرة، تراجع الدور المصرى مرة بعد مرة فى التأثير مقابل تقدم السعودية عليها سواء بالنسبة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى، أو الأزمة اللبنانية أو العلاقات العربية الإيرانية، حيث لم يكن لدى القاهرة المجال للتفوق على السعودية المنافس الأقوى لها على القيادة العربية، أصبحت السعودية - لا مصر - هى المضيف للفصائل الفلسطينية المتحاربة، كان الدبلوماسيون السعوديون هم من توجهوا إلى لبنان الصيف الماضى لبذل جهود الوساطة ووقف النزاع بين إسرائيل وحزب الله، وهم من واصلوا هذه الجهود خلال المنافسة السياسية فى لبنان حتى اليوم، كانت الرياض هى من مثل العالم العربى فى المفاوضات الإيرانية الأمريكية فى العراق رغم تحفظ السعوديين على أى اتفاق إيرانى أمريكى بشأن مستقبل العراق، لكن عندما ظهر أن واشنطن وطهران سيجعلان المفاوضات علنية، سارعت الرياض بالتحرك والمشاركة فى المحادثات، وأصبحت الطرف الذى يؤكد مصالح سنة العراق على طاولة المفاوضات، ومازالت مصر تدعو بعض القادة إلى شرم الشيخ، لكن لا يتساوى مجرد الاستضافة بصياغة جدول الأعمال، وتظل مصر تحظى بفاعلية كبيرة فى الشرق الأوسط، ولا يزال العديد من الدول العربية (ومن بينها الأردن ولبنان والشعب الفلسطينى) ينظر إليها باعتبارها أخا أكبر، رغم ذلك فإنه فى غضون الأشهر الست المقبلة ستترك مصر قيادة المنطقة إلى السعودية؛ لأنها فى الحقيقة لا تملك سوى فعل ذلك، وهو ما سينعكس على المنطقة بكاملها، حيث ستتجه دول الخليج والمشرق وشمال إفريقيا إلى الرياض، كما ستسعى الدول المتنازعة مع السعودية (مثل قطر واليمن) إلى تحسين علاقاتها معها. . ودخلت مصر فى مرحلة عدم الثقة السياسية!!" . .

والتقرير كان متزامنا ـ تقريبا ـ مع حملة تشكيك أمريكية فى الدور المصرى، وتدفع باتجاه خلق منافسة، أو الإيحاء بوجود صراع أدوار بين مصر والسعودية!!وإلى جانب التوقعات والتحليلات التى نشرتها بعض الصحف الأمريكية، قالت وكالة "يونايتد برس" الأمريكية ـ ١٢/ ٤/ ٢٠٠٧ : إن مصر مستعدة لقبول ودعم الدور القيادى للمملكة العربية السعودية فى الشرق الأوسط، وأكدت الوكالة فى تحليلها الإخبارى، نقلا عن خبير أمنى سعودى وطيد الصلة بالعائلة المالكة السعودية، أن الملك عبدالله يعتبر نفسه جمال عبدالناصر الجديد، ولكن دون العامل الاشتراكى، وأنه يجب أن يأخذ مكانه على رأس الخريطة العربية.. ونبه التقرير، الذى أعده المحرر الدولى بالوكالة كلود سالهونى، إلى قول المسئول السعودى، منذ وفاة الرئيس جمال عبدالناصر عام ١٩٧٠، والعالم العربى دون قائد قوى، قادر على توحيد العرب.. وأن الملك يرى فى نفسه دورا كبديل محتمل لجمال عبدالناصر.. ونقل التقرير عن السفير نبيل فهمى، سفير مصر وقتئذ فى واشنطن، تعليقه: "لا أعرف ما إذا كان الملك عبدالله يرى نفسه مثل عبدالناصر أم لا، ولكن إن كان فلا مشكلة فى ذلك معنا، إن الشرق الأوسط لديه الكثير من المشاكل، وكلما كان لدينا عدد من الزعماء الأقوياء كان ذلك أفضل..

ونفس الرؤية الأمريكية طرحها السفير الأمريكى الأسبق فى القاهرة "دانيال كيرتزر" والذى يعمل حاليا رئيسا لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة برينستون الأمريكية، واصفا النظام السياسى المصرى بـ "المتصلب".. وقال ـ فى مقال لصحيفة "ديلى ستارز" اللبنانية التى تصدر بالتعاون مع صحيفة "الهيرالد تريبون" فى ١٥/ ٧/ ٢٠٠٧: أن

الدبلوماسية السعودية تسعى بجدية وتعمل على احتلال مكانة مصر فى مركز صناعة القرارات العربية المعتدلة!!

. . . .

والخلط واضح بين الموقف السياسى، وبين الدور بمفهومه الشامل والأوسع . . بين جهد سياسى ودبلوماسى فى لحظة مشحونة باعتبارات متشابكة أو نزاعات طارئة أو أزمة عابرة، وبين حركة الدور بتأثيره وامتداد حركته التاريخية . . فالموقف السياسى تخلقه أو تفرضه ظروف واعتبارات خاصة، والدور تفرضه أحكام الجغرافيا والتاريخ . . الموقف حركة فى لحظة من عمر التاريخ، والدور حركته تاريخية متواصلة . . ثم أن الموقف يبرز حين تتوافر له أسباب أو دوافع محلية وفى حدود مصلحة " قطرية " قد ترتبط بتوجيهات أو مصلحة خارجية، أما الدور فتحكمه الدواعى التاريخية بعيدة المدى.

الموقف حقيقة سياسية . . والدور حقيقة تاريخية . .

والموقف رهن سياسة الدولة (مصلحة خاصة) والدور قدر تاريخى (مصلحة عامة) والموقف قد يتراجع ويتبدل ويختلف وفقا لتطورات الأحداث والظروف الراهنة المحيطة به . . ولكن الدور قد تتباطأ حركته ولكن لا يختلف أو يتراجع بالغياب أو التآكل ؛ لأن هذا معناه تراجع الجغرافيا أو غيابها عن موقعها، أو مثلا تآكل سنوات التاريخ وأحكامه!! ولكنه قد يظل مجمدا أو محاصرا برؤية قاصرة، أو بدواعى الحكمة التى تفتقد مبرراتها، كما عبر عنها وزير الخارجية السابق ـ أحمد أبو الغيط ـ (١٢/ ٨/ ٢٠٠٧) : بأن الدور اختلف ولم يندثر أو يتراجع بسبب تغير الظروف الدولية ولا يمكن أن نغامر بإمكانات وموارد مصر فى جهود

مصيرها الفشل، ومن يتحدث عن تراجع الدور المصرى يريد وضعنا فى المواجهة. . مصر تركت ١٠ آلاف شهيد فى اليمن وأرسلت العديد من الوحدات المدرعة إلى بغداد عام ٦٤، ومنذ ٦٧ ونحن نخوض معارك حياة أو موت، وبالتالى كانت الظروف تفرض علينا أن يكون دورنا كبيرا، أما الآن وفى ظل السلام مع إسرائيل والتغير فى منظومة العلاقات الدولية، فمن الطبيعى أن يختلف الدور، ولكنه لم يتراجع أو يندثر، وأن معالجة مشاكل المنطقة تتطلب قدرا كبيرا من الوعى والفهم الصحيح لأسبابها، والحرص على توخى الحكمة وإدراك الحقائق كاملة قبل اتخاذ أى قرار، حتى يمكن توجيه الأحداث بما يخدم مصالح المنطقة وشعوبها. .

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر. . أن الحديث عن الدور كان قاصرا على النشاط السياسى، وهو مجرد عنصر من عناصر حركة الدور وفاعليته وتأثيره للدولة القائد المعترف بها فى المنطقة العربية.

ولعلنا نتفق على أن هناك فرقا بين مفهوم الدور المصرى وبين حركة النشاط السياسى والجهد الدبلوماسى. .

ولعلنا نتفق على أن هذا الدور كان مستهدفا من قوى السيطرة الأجنبية ـ فى كل زمان ـ وهذا ما حاولته بريطانيا وجربته الولايات المتحدة، وحلمت به إسرائيل. . وكان هدف القوى الطامعة إحكام القبضة على مصر بعزل دورها عن محيطه العربى والإقليمى. . ويبدو واضحا الهدف الأمريكى ـ تحديدا ـ بتقنين حركة الدولة القائد فى المنطقة العربية، وفى إطار يبدو وكأنه متفقا عليه ويكتسب شرعية الرضا والقبول!!

ولعلنا نتفق ـ أيضا ـ على أن حركة الدور على مسار التاريخ تعتريها

فترات انكماش وترهل، وهى حقب زمنية لا يغيب خلالها أو يتجمد فعل وحركة الدور وتأثيره، ولكن قد تتعطل بعض مسئولياته القومية داخل حدود أمته، أو امتداد الحركة على الصعيد الإقليمى، وحين تعترض الطريق ظروف طارئة وغالبة!!

. . . .

. . . .

والشاهد. . فإن هموم الأمة والأزمات الضاغطة عليها من كل نوع. . على جسدها وعلى هويتها. . هى التى دفعت كثيرين من مفكريها إلى طرح التساؤلات الحائرة والقلقة عن الدور المصرى وعن مسئوليات الدولة القائد فى المنطقة. . وتدفعهم إلى تشخيص الأحوال وأسبابها. .

وعلى سبيل المثال فإن الأسباب لدى مفكر عربى مثل الدكتور جلال أمين أن الدولة القائدة لم تعد دولة قوية إزاء الأجنبى، وعلى الأخص إزاء الولايات المتحدة، فيصفونها بالدولة التابعة. . وهو يقول: كان لابد إذن أن تدفع مصر ثمنا أعلى مما دفعه غيرها نتيجة هبوب رياح العولمة ابتداء من السبعينيات، فزلزلت قوائم الدولة المصرية حتى أفقدتها توازنها وقد ضاعف من أثر العولمة فى إضعاف الدولة المصرية ثلاثة عوامل مهمة:

الأول : هزيمة الدولة المصرية فى ١٩٦٧، حيث نتج عن الاعتداء الإسرائيلى احتلال سيناء وما ترتب عليه من آثار اقتصادية، وضعف سياسى، وفقدان الدولة الناصرية ما كانت تتمتع به من ولاء غالبية المصريين. .

والثانى: شخصية الرئيس الجديد الذى حل محل عبدالناصر فى ١٩٧٠، إذا اجتمعت فيه عدة صفات ساعدت على تفكيك الدولة المصرية، ومن ناحية لم يكن أنور السادات يشيع الرهبة فى الناس مثلما كان يشيعها سلفه، وهو بطبعه مفتون بكل ما هو غربى، ومن ثم لديه استعداد طبيعى لقبول فتح الأبواب أمام الأجانب، وإزالة أى عقبة قائمة فى وجوههم، ولو على حساب القواعد المستقرة..

والثالث: أن موجة العولمة الجديدة اقترنت بحدوث تضخم جامح كانت العولمة نفسها أحد أسبابه.. وقد اجتمعت هذه العوامل كلها، مع رياح العولمة، لتحدث تأثيرها فى إضعاف الدولة الذى بدأ المصريون يشعرون به ويستغربونه منذ أوائل السبعينيات!!

ومن وجهة نظر الدكتور جلال أمين أنه من الصعب تصور أن تظل الدولة المصرية بعد ١٩٦٧ بالقوة نفسها التى كانت قبلها.. نعم، لقد حدثت حرب ١٩٧٣، وتم عبور عسكرى ناجح إلى سيناء، ولكن هذا الإنجاز العسكرى لم يقترن بإنجاز سياسى مساو له، بل فرض على مصر مختلف الشروط فى الاتفاقيات المتتالية مع إسرائيل وبمناسبة هذه الاتفاقيات، ابتداء من اتفاقيات فك الاشتباك فى ١٩٧٥، إلى اتفاقية السلام فى ١٩٧٩، ساهمت هذه الشروط بلا شك فى إضعاف الدولة المصرية.. كيف حدث هذا بالضبط؟!وكان دخول الولايات المتحدة طرفا فى اتفاقيات تحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى قد دشن باحتفال عظيم بزيارة الرئيس نيكسون مصر فى ١٩٧٤ وكأنه إمبراطور رومانى جاء ليتفقد هذه الدرة الثمينة التى أضيفت مؤخرا إلى ممتلكاته، ولكن هذا الإمبراطور طلب من أجل أن يحل مشكلة سيناء، أشياء كثيرة من إعادة

تسليح الجيش المصرى بسلاح أمريكى إلى فتح أبواب الاقتصاد المصرى أمام رؤوس الأموال والسلع الأمريكية والغربية بوجه عام، وابتعاد مصر تدريجيا عن منطقتها العربية، فضلا - بالطبع - عن تغيير طبيعة العلاقة بين مصر وإسرائيل. . ومنذ ذلك الوقت، أى منذ منتصف السبعينيات، ظهرت رخاوة الدولة المصرية إزاء الإرادة الأمريكية، وإزاء الإرادة الإسرائيلية وإزاء إرادة رأس المال الأجنبى كما أدى أيضا إلى رخاوة الدولة المصرية إزاء الدول العربية الأخرى. . فالولايات المتحدة وإسرائيل لهما مطامع ومشروعات فى الدول العربية الأخرى، تتعلق بالبترول من ناحية، وبإنشاء علاقات بين إسرائيل وهذه الدول من ناحية أخرى، وبتوسيع دائرة الانفتاح الاقتصادى لتشمل المنطقة العربية كلها من ناحية ثالثة، وكان لابد لمصر (فى نظر أمريكا وإسرائيل) أن تقدم خدماتها لهما فى كل هذه المجالات، وقد كان. . فإذا بهذه الدولة العربية أو تلك تكتشف بالتدريج "ومازالت تكتشف" كيف فقدت مصر كزعيمة وشقيقة كبرى، وكحكم فيما ينشأ من نزاعات بين دولة عربية وأخرى، وأن تكتشف كيف أصبحت الدولة المصرية رخوة فى علاقاتها ببقية العرب مثلما أصبحت فى علاقتها بالولايات المتحدة وإسرائيل، وفى علاقتها برأس المال الأجنبى!!

. . . .

ويرى المفكر الكبير الدكتور أنور عبدالملك أن "كامب ديفيد" هى التى قادتنا إلى ما نحن فيه فى السياسة كما فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة وكافة شئون الحياة. . ويقول: مصر حضارة عمرها سبعة آلاف سنة، يجرى فيها نيل، وبفضل النيل هناك زراعة وبفضل الزراعة وجد

الاستقرار وعاش الناس، كانت هذه بتبسيط شديد حياة المصريين، الذين حرصوا دائما على تحقيق استقرارهم واستقلالهم، وهو ما تبدى، فى صورة حديثة فى محاولات طلعت حرب تمصير الاقتصاد الوطنى ومحاولات تأسيس قطاع عام قوى فى عهد عبدالناصر، ذلك كله انتهى، لأن كامب ديفيد لم تكن فقط لها نتائج سياسية، لكنها أيضا دمرت الاقتصاد الوطنى، وحدث ضعف متزايد للدولة المصرية، للنظام الاجتماعى والسياسى، كأنك فى سفينة أصابتها العواصف وهى فى عرض البحر..

وعلى صعيد آخر فإن التطورات التى جرت فى العالم من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية، تؤكد صحوة قومية لم تكن فى الحسبان، أنظر إلى الصين، اليابان، الهند، كوريا، دول أمريكا اللاتينية، وهو ما يدفع إلى القول أن ما يحكم الصراع اليوم هو صحوة الصراع على مستوى عالمى ضد الاستعمار والهيمنة، وبالتالى ما يتردد عن أن العالم اليوم قرية واحدة وأن القوميات انتهت ليس سوى أكذوبة كبرى، كلام تردده عصابات الفكر الصهيونى، فالعالم كله الآن تتصاعد فيه صحوة تنادى بأولوية الأمة والقومية، والدولة، وليس التنظيمات عبر القارية، هذا الموضوع غائب عنا فى مصر منذ كامب ديفيد.. بينما الواقع يؤكد أن التاريخ التقليدى أى تاريخ النظام العالمى القائم منذ القرن السادس عشر حول غرب أوروبا ثم أمريكا مركزا، دخل فى مرحلة الأفول، هذا بينما تعيش شعوب العالم وأممه ودوله الوطنية، وثقافاته صحوة كبرى، خاصة فى دائرة الشرق الحضارى حول آسيا الشرقية والصين مركزا..

والدكتور أنور عبدالملك يلفت الانتباه إلى تراجع دور مصر باتجاه الشرق ورغم أن التوجه إلى الشرق بدأ فى مصر مع بدايات القرن العشرين لكنه أخذ شكله المحدد مع مؤتمر "باندونج" فى أواسط الخمسينيات، هذا المؤتمر الذى شهد اجتماع زعماء دول الشرق لأول مرة منذ أجيال طويلة يعلنون فيه عن وجودهم، وأهم الدول التى اجتمعت آنذاك كانت الصين، الهند، مصر، إندونيسيا، وغيرها، وكان لمصر دور أساسى ومهم، وقد لفت جمال عبدالناصر نظر رئيس الوزراء الصينى "شواين لاى" لصمته واهتمامه بالتساؤل وبتسجيل الملاحظات أكثر من شغفه بإبداء آراء. بعد ذلك بدأ الاتجاه إلى دول عدم الانحياز أو ما يمكن أن نسميه جبهة عالمية للشعوب المضطهدة. .واليوم أصبح الشرق باعتراف الجميع هو مركز التحرك العالمى الجديد، وانتقل مركز الثقل من الأطلنطى إلى دول الشرق. . والغريب أن المتخلف عن هذه التحولات الجديدة هى مصر، وهى التى شاركت فى هذه الدعوة بشكل أساسى؛ لأنه بعد معاهدة "كامب ديفيد" قبلت أن تخضع للحصار، وأنا لا أدعو إلى قطيعة مع الغرب، لكننى أدعو إلى أن نغلب مصلحة مصر فى كل ما نختار.

. . . .

وهناك عامل آخر يراه المفكر والخبير الاستراتيجى نبيل عبدالفتاح - بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - فى تآكل الموروث الحداثى. . وأن مصر عاشت على فائض مواريث الحداثة من الخبرات والتقاليد والهندسات الدستورية والسياسية والقضائية والإبداعية فى مناخ عديدة، ومما شكل خمائر الدفع الأساسية لنظام يوليو. . والمصريون على

الأقل بالنسبة للفئات الأكثر شعبية كانوا على استعداد أن يعطوا شرعية ما للنخبة الجديدة، فى إطار دعم مشروعهــا الإقليمى الكبير، وأيضا مساندة لفكرة العدالة الاجـتماعية وأن يكون لمصر وزن وثقـل إقليمى ودولى مع حركة عدم الانحياز. . وفى حقيـقة الأمر فإن الذى ساهم فى بدء التآكل التدريجى للدولة هو أولا الصراع العربى الإسرائيلى الذى استخدم شعارا لقمع الحريات العامة والفردية، فضلا عن أن هذا الصراع كان مصدرا من مصادر شرعية النظام المصرى وعديـد من النظم العربية الأخرى، وبالتالى ظل هذا التحدى الخارجى "فزاعة" لقمع حـريات الرأى والتعبير فى أكثر من بلـد عربى، والذى حـدث بعد ذلك كـان دراميا، إذ فى ضـوء هذا الصخب واسـع النطاق عند بناء دولة ناصـرية ثم بناء الدولة السـاداتية، والجدالات الكبـيرة التى جرت حول هذه المشـاريع لم ير أحد أن الإرث الحداثى المصرى يتأكل وبسرعة. .

ومن الأسباب الرئيسية لتأكل هذا الموروث الحداثى هو هذا الخلط بين الحقول فى مصر وتحديدا بين الحقل الدينى والحقل السياسى، وبين الحقل الأمنى والحـقل السـياسى. . والصـراع الذى تم بين الإخـوان المسلمـين وعبدالنـاصر جعله يدرك بسبب تـكوينه الدينى والثقافـى وتأثره، بالإمام محمد عبـده وخالد محمد خالد، أن الدين أخـطر من أن يترك فى أيدى جماعـة سياسيـة وأن الدولة عليهـا أن تؤممه، فكان أول تأميم فـى يوليو ١٩٥٢ هو تأميم الإسلام والأرثوذكسية المصـرية معا، وساعد على تأميم الأرثوذكـسية المصـرية، العلاقـة الخاصـة التى ربطت بيـن قداسة البـابا كيلرولوس والرئيس عبدالناصـر، وتأكد منذ ذلك التاريخ أن الدين ضمن احتكارات الـدولة، وربما كان ذلك فى شكـل من أشكال استعـارة تجربة

محمد على وهو يؤسس للدولة المصرية الحديثة فى بواكيرها الأولى، وحين قرر أن الأزهر لا ينبغى أن يترك لأحد، وأن طبقة علماء الأزهر لا ينبغى قط أن تكون لها مواردها الخاصة، ومن ثم سعى إلى تصفية الأساس الاجتماعى لعلماء الأزهر حتى يكونوا أداة فى أيدى الدولة، فقد كان أغلبهم ملتزمين، فعمد هو إلى تصفية نظام الالتزام، فأصبحوا يعتمدون فى مواردهم بدءا من شيخ الأزهر إلى أصغر مجاور بالأزهر على الدولة.. وفى ظل الدولة شبه الليبرالية كان مصطفى النحاس باشا هو الأكثر وضوحا من حيث انحيازه للحداثة السياسية والعقلانية، وكان حاسما فى عدم الخلط بين الدين والدولة.. والخلط الذى جرى فى أعقاب يوليو ٥٢، جعل من الدين أداة سياسية وفى ظل تقاليد غير ديمقراطية، يكون الدين إحدى أدوات السيطرة لأن الدين والقمع مولدان كبيران للخوف والتأييد.. وعبدالناصر استخدم الدين بمنطق أكثر استنارة من لاحقيه، فقد استخدمه فى التعبئة وعمليات الانتقال التى تمت من المشروع الخاص إلى المشروع العام، ثم فى سياساته الإقليمية ودور مصر المحورى فى المنطقة وفى حركة عدم الانحياز..

ويقول الدكتور نبيل عبدالفتاح أن تداعيات هذا التآكل للدولة الحداثية إقليميا وتأثيره على تراجع الدور المصرى، كان واضحا فى مناسبات عديدة، فليس بعيدا عن ما نشاهده من تراجع للدور المصرى فى ظل تمدد وهيمنة الدور الإقليمى الإيرانى الذى تواجهه أدوار لدول أخرى بينها إسرائيل مصدر التهديد الرئيسى فى المنطقة، ثم الدور التركى، ثم الدور السعودى الذى استعاد دبلوماسية الشيكات بسبب تراجع أدوار الآخرين، فالدور الإقليمى السعودى صعد مع ارتفاع أسعار النفط فى ضوء أزمة

الخليج الثالثة بدرجة كبيرة، ٦٠ مليار دولار عام ٢٠٠٤ فائض مالى، ارتفع إلى ٧٥ مليارا سنة ٢٠٠٥، ١٠٠ مليار دولار سنة ٢٠٠٦، وبمليار دولار واحد جاءت السعودية بالفلسطينيين إلى مائدة التفاوض وللتوقيع على حل فى الرياض، بينما بذل المصريون جهدا كبيرا طوال سنوات ولم يحققوا أى نتيجة.. هذا شكل من أشكال تآكل الدور بفعل تأكل الدولة الحداثية.

....

....

وربما كانت هذه الأسباب ـ أو غيرها ـ وهى موضوعات كبيرة الأهمية، لها تأثيرها المباشر والقوى على الدولة القائدة فى المنطقة العربية وعلى حركة الدور المصرى.. ولكن ليس معنى هذا أن نبالغ فى التشخيص وإلى تلك الدرجة من التوصيف التى تصل إلى تعبير تآكل أو تراجع وغياب الدور الذى يملك قوة الحركة الذاتية ومهما كانت التحديات والعقبات على الطريق!! فمصر بالدرجة الأولى دور، وهذا الدور يستند إلى قواعد تأسيس ومواريث تاريخية وحضارية وإنسانية.. وبهذه الحقائق فإن مصر سيبقى لها الدور الحاسم، وهو دور ريادى ومهم فى الإقليم ـ كما يقول الأمير الحسن بن طلال ولى عهد المملكة الأردنية الهاشمية السابق ورئيس منتدى الفكر العربى ـ ورؤيته أن دور مصر لم يتراجع فى المنطقة، وليس صحيحا قصور دورها الإقليمى، ولكن عندما نتحدث عن التدخل الخارجى فى جملة أزمات بالمنطقة، من أفغانستان مرورا بلبنان وفلسطين والعراق وإيران والسودان، فإنه يستحيل للعرب بصفة عامة، ولمصر بصفة خاصة القيام بدور من دون تفاهم واضح على

أهمية التشاور فى الرؤى كافة. .

وبرؤية الأمير الحسن بن طلال فإن الرهان على الدور المصرى ليس رهانا على المجهول، ولكنه رهان على القدر التاريخى لمصر، ورهان على أحكام الجغرافيا والتاريخ، بل ورهان على كل ما هو إنسانى وحضارى وتاريخى. . ولذلك فإن الأمة الشاعرة بوطأة الأزمات تطبق عليها من كل ناحية تبحث بالدرجة الأولى عن حركة الدور المصرى، تطمئن إليه، وتقيم مستقبلها فى أمانة.

ويبقى مع ذلك. . أن الدور المصرى معرض لتأثيرات سالبة لبعض جوانب حركته تحت ضغط الأجواء المشحونة بالتوتر ومزدحمة بالشك فى المنطقة، وإذا كانت الشواهد تقرّ بأن القيادة السياسية وفى حقبة زمنية امتدت نحو ٣٥ عاما، قد فقدت الوعى التاريخى بأحكام، ومسئوليات دور مصر، وقد أخطأت بالضرورة فى إدارة حركة "الدور" وأهدرت قيمته وحركته. . فإن هناك حقيقة أخرى. . وهى حجم التحديات أمام هذا الدور - وربما كانت غير مسبوقة فى التاريخ - من حيث تزامن حركتها دوليا وإقليميا وعربيا. . فهناك أنواع مستجدة من العلاقات والتحالفات حرجة وخطرة. . وهناك حركة الأفكار والتجارب فى المنطقة. . وهناك حركة الصراعات الدولية - سياسية واقتصادية - وتجرى مقدمة مشاهدها على المنطقة العربية. . وهناك تحركات دول على أطراف العالم العربى تسعى إلى دور إقليمى مؤثر. . وهناك طبيعة التحدى الإسرائيلى وحالة التخبط التى سبقت إليها أزمة الشرق الأوسط. . وهناك حركة النزاعات والخلافات العربية، وهى حركة على كف عفريت من الجن لا يعرف أحد متى تبدأ وكيف تنتهى. . وهناك بصفة عامة أوضاعا

عربية غير مستقرة مع تشتت المواقف وأحيانا تصادمها، وهى بالضرورة قد أثقلت على حركة الدور المصرى..

وهناك من يرى - وهى وجهة نظر جديرة بالاحترام - أن هذه الحقيقة ليست مبررا لتراجع الدور المصرى، وأنه رغم التسليم بالمتغيرات الإقليمية، وما صاحبته من تغييرات دولية مثل ترسيخ الهيمنة العالمية الأمريكية ووجودها فى المنطقة، فإن مصر كانت تستطيع اتباع سياسة أكثر تأثيرا فى منطقتها، من خلال سياسات خلاقة، ومواقف تتسم بالجرأة وليس الصدام، ينفى عنها - كما يقول الأمين التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية السفير د. السيد أمين شلبى - الإنطباع بأنها منكفئة على نفسها، وأتبعت سياسة استرضاء الولايات المتحدة الأمريكية، وعدم الحزم مع السياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، وسلوكها فى المنطقة!!

□□□

دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

كلمة ختام

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء
أنا مصر عندى أحب وأجمل الأشياء
باحبها وهى مالكة الأرض شرق وغرب
وباحبها وهى مرمية جريحة حرب
باحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء
وأكرهها وألعن أبوها بعشق زى الداء
وأسيبها واطفش فى درب وتبقى هىّ فى درب
وتلتفت تلاقينى جنبها فى الكرب
والنبض ينفض عروقى بألف نغمة وضرب
على اسم مصر .

صلاح جاهين

ماذا بقى؟ وماذا أقول؟

هناك الكثير بالطبع وهو فوق طاقتى المحدودة.. ولكن.. لعلى أضيف إلى كل ما سبق.. أن هذا الكتاب كان مجرد محاولة للرد على سؤال أثار الحديث الذى احتدم حول دور مصر.. وبصرف النظر عن كل ما قيل ويقال، وبصرف النظر عن حقيقة النوايا وراء كل هذا، فإن هناك خلطا شديدا بين مفهوم الدور، وبين حركة هذا الدور، تحركاته واتجاهات هذه التحركات، هل انحرفت عن مسارها الصحيح والمتوقع؟! هل تراجعت؟! هل تعطلت؟! أو قل ما شئت من توصيفات!! وهناك خلط فى الحديث عن دور دولة ما، وبرؤية قاصرة إلى جانب واحد من جوانب حركة الدور، وسواء على مستوى الفعل السياسى، أو على مستوى التأثير الثقافى والاجتماعى، أو على مستوى القوة العسكرية والردع بها مثلا.. وهكذا.

وما يعنينى كان الفرق بين الحديث عن دور مصر ـ تحديدا ـ ودور أية دولة أخرى سواء كانت من دول المستوى الأول، أو دول المستوى الثالث النامى أو المتخلف، وما بينهما من دول صاعدة تريد أن تلحق بعالم الدول الكبرى.. فمصر كيان بالغ الخصوصية وبأحكام التاريخ والجغرافية والتى هى أعقد بكثير وأصعب من أن يتم التحلل منها، وهناك قواعد تأسيس للدور المصرى جعلت منه أشبه بالقدر المكتوب على مصر.. ثم أن مصر لا تستطيع أن تخرج من دائرة دورها؛ لأن هذا يعنى خروجها من دائرة التاريخ وحركته.. ولذلك فإن المواقف أو التحركات السياسية التى يراها البعض تعبيرا عن تراجع الدور المصرى، ليست دليلا على أن القصور فى الدور، وإنما فى إدارة حركة هذا الدور.. وإذا كانت هذه التحركات وردود الفعل قد تكشف فى ظاهرها ترهل أو تشتت الأفكار أو

تراجع المواقف، ولكنها بالضرورة لا تكشف القدرات الحقيقية للدور.

.....

وكنت أريد أن ألفت الانتباه إلى أخطاء فى التقييم وحين نضع رد الفعل المصرى تجاه حدث ما، أو أزمة ما - وما أكثر الأزمات والقضايا فوق ساحتنا العربية - معيارا للحكم على دور مصر بمعناه الأشمل والأوسع!! والحاصل فإن رؤية صناع القرار قد تتأثر بما يحجب الرؤية السليمة ويحجب التقدير الصحيح للحسابات، وقد تتأثر هذه الرؤية بأمزجة ومصلحة الأنظمة الحاكمة.. ولكن الأنظمة سوف تذهب إلى ملفات التاريخ، والذى يبقى دائما هو دور مصر.. ثم أن ردود الفعل أو حركة الدور قد تكون وفقا لما هو متاح من القدرات والطاقات - وفى لحظة تاريخية ما - ولكن يظل دائما ذلك الإدراك العميق بجوهر الدور المصرى وأبعاده..

وعلى أية حال فقد سادت الأجواء العربية قناعة بأن حالة الغياب والتخلخل والانهيار عربيا، مرتبطة بمصر؛ لأنه لابد أن يكون هناك محور تدور حوله الحركة، ومع تراجع المحور عن أداء دوره، فإن هناك خلخلة فى أداء كل حركة داخل الإقليم العربى، وأن الأمل غالب على اليأس أن تنجح مصر فى أن تضع نفسها فى موضعها الصحيح تاريخيا وتؤدى دورها!! وهذه القناعة ورغم ما تستند إليه من أهمية دور المحور.. دور الدولة القائد فى المنطقة.. إلا أنها تحمل قدرا من مشاعر القلق، وربما الحيرة، حول غياب دور مصر.. الكل يلف ويدور حول غياب الدور، ودون تحديد لجوانب الغياب.. وفى حقيقة الأمر لا يستطيع أحد أن يقرر غياب الدور، ولكن يستطيع أن يطرح عدم اقتناعه بحركة هذا الدور وفقا

للظروف والتوازنات الإقليمية والمحلية. . ويبدو واضحا ـ مرة أخرى ـ عدم الوعى بأهمية الفرق بين جوهر الدور وأبعاده وقدراته، وبين إدارة حركة هذا الدور، وعدم الوعى هنا لم يخلق فقط سوء الفهم، ولكن خلق ما هو أسوأ، وهو التشكيك فى دور مصر، حتى تصورت دول عربية ـ بعينها ـ أنها يمكن أن تلعب هذا الدور، وهى لا تدرك ـ حتما ـ أنها لا تملك قواعد التأسيس والميراث الحضارى والإنسانى الذى جعل لدور مصر خصوصية متفردة. .

وعموما. . أريد أن أكون منصفا مع الواقع ومع الحقيقة.

أن دور مصر الثقافى والاجتماعى لم يعد كما كان رائدا ومؤثرا وخالقا. . وأن هناك بالفعل حالة (غير طبيعية) تخيم على مجالات الإبداع المصرى، ولا تتسق مع تاريخ ومسار الدور المصرى، ومع حالة تجريف انحرفت بمصر من موقع الريادة والتنوير، إلى هوامش الإبداع الفكرى والفنى، وحين أتاح النظام لأنصاف المبدعين من الموالين وكتبة السلطة، أن يتصدروا القائمة، وأن يكون معيار التقييم والتقدير ـ ما يرونه معيار الصلاحية ـ وفقا للعلاقات الخاصة مع دوائر السلطة، والانتماء والولاء للنظام ومؤسساته الحاكمة، وقد عانت مصر طويلا، ومنذ منتصف السبعينيات، وعلى امتداد أكثر من ثلاثة عقود، من هذا التجريف داخل الساحة السياسية والثقافية. . وكانت النتيجة، هجرة المبدعين من أبناء مصر إلى العزلة داخليا، أو إلى خارج الوطن!! وهى حالة أجاد التعبير عنها العرض المسرحى "قهوة سادة" من خلال مشاهد متتالية وساخرة لحياتنا الحالية، تكشف عمق التغيير والتبديل الذى نتعرض له، والذى يستدعى شرب " قهوة سادة " حزنا على أشياء كثيرة ضاعت

وتضيع!! ويبدأ العرض بمجموعات تتوافد إلى مكان رملى وهم يحملون أشياء من الزمن المصرى الماضى، راديو ضخما، مطحنة بن، ساعة حائط، تحفة فضية، والكثير جدا من صور النجوم الراحلين فى كل ميادين العلم والأدب والفن المصرى، وبحزن يصل إلى حد البكاء يغرزون الأشياء والصور فى الرمل كما لو كانوا يدفنونها، ويستديرون كى يأتى آخرون يحملون صور العقاد، وطه حسين، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وعبدالوهاب، وأم كلثوم، وطلعت حرب، ومصطفى مشرفة، وليلى مراد، ومحمد فوزى، وعبدالحليم حافظ، فى مشهد مهيب يثير الشجن ويلفت الانتباه إلى أن العصر الذهبى المصرى للفن والأدب والعلم كاد أن يصبح فى خبر كان، ويطرح العرض المسرحى فكرة أن علينا أن نجدد مثله، وأن يكون لدينا طهطاوى جديد، وعبدالله النديم، والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل، وقاسم أمين، والمازنى، والمنفلوطى، وسلامة موسى، ولويس عوض، وصلاح جاهين، وكمال الطويل، وعبدالحليم حافظ. . وأن من يملك هذا التاريخ فى الفن والعلم والأدب والأخلاق يمكنه أن يملك الحاضر والمستقبل إذا أراد. .

. . . . . .

. . . . . .

وهناك إضافة فوق ما تقدم. . وهى:

أن مصر ـ وفى ظروف طارئة ـ حاولت أن تشفق على نفسها من مسئوليات الدور، وهى رؤية طرحها فى منتصف السبعينيات ـ تقريبا ـ شاه إيران محمد رضا بهلوى على الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، ونصيحة الشاه ـ المشكوك فى نواياها ـ تقول بأن الصراعات فى المنطقة

العربية كلفت مصر أكثر مما تطيق، وأنه قد حان الوقت لكى تلتفت مصر لنفسها، وتنصرف إلى شئونها الخاصة!! وفى تلك السنوات انطلق شعار " مصر أولا " ودار الجدل خلالها حول عروبة مصر، وانتمائها العربى!!

وفى ظروف طارئة ـ أيضا ـ امتدت أكثر من ثلاثة عقود، كانت مصالح النظام الحاكم، والتمهيد للتوريث، وليس المصالح الوطنية، وهى المحور الذى تقوم عليه السياسة الخارجية لمصر، وقد اهتزت صورة الدور الخارجى لمصر بشدة، وقد أصبح التعامل مع القضايا والأزمات من موقف رد الفعل دون الفعل!!

. . . . . .

. . . . . .

وألخص ما أريد أن أقوله:

لابد أن تكون الحقائق واضحة.. وأولى الحقائق: أن الجغرافية والتاريخ معا، والتجارب والمواريث الحضارية لقرون طويلة، فرضت أو حددت، دور مصر.. ولا يمكن الرهان عليه، ولا يمكن اختصاره فى بعض جوانب حركة هذا الدور.. والحقيقة الثانية: أن حركة دور مصر قد تعتريها ـ وفى ظرف ما ـ حالة رجوع إلى الداخل وانكماش، تطفح عليها مظاهر الترهل.. والحقيقة الثالثة: أن الحديث عن تراجع هذه الحركة (وليس الدور بالطبع) هو تفكير لا يأخذ فى تقديره الأوضاع الداخلية التى أثقلت على حركة الدور ـ وفى ظروف طارئة أحيانا ـ ومنها قضايا التنمية الاقتصادية، وقضايا التطور الاجتماعى، وغيرها من القضايا الداخلية وحتى فى مجال الخدمات العادية.. وقوة مصر الداخلية تنعكس على مكانتها الخارجية، ووجود خلل فى الجبهة الداخلية يؤدى إلى تراجع

حركة الدور المصرى . . . وأثقلت على حركة الدور أيضا الأوضاع المتردية سياسـيا داخل العالم العـربى والذى تتزاحم فوقـه الظلال والألوان، إلى جانب الأخطاء التى ترتكبها أطراف عربية.

وكان ذلك تأثيـر واقع الحال على حركة الدور، وربما سـاعدت عليه عوامل إضافية . .

وأهمها ـ بل وأخطرها ـ حين تنتقل القيادة فى مصر، إلى رجال من حجم عادى، وكفاءة عادية، حينئذ تصبح رؤيتهم تحت أقدامهم!!

دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

الفهرس

الفهرس



القاهرة : ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com